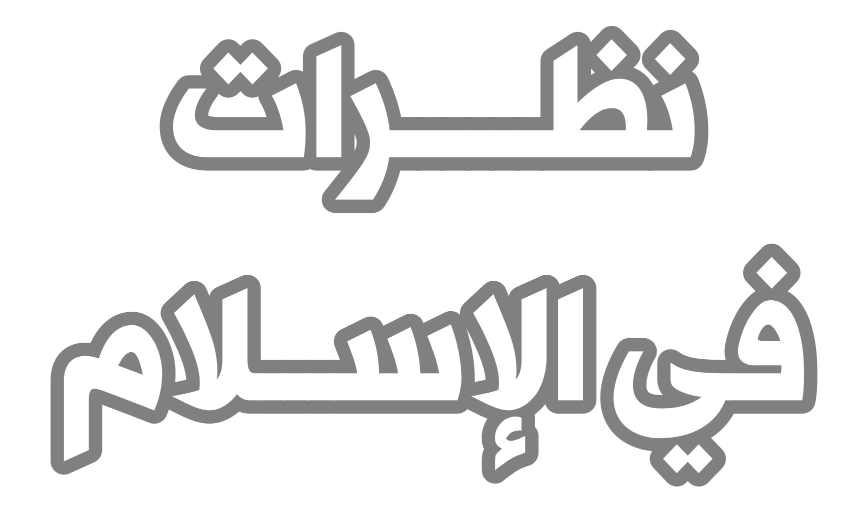


للأستاذ الدكتور/ محمد عبدالله دراز
عضو جماعة كبار العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد نظرنا في تاريخ الحركات الدينية، وتاريخ الرسالات الإصلاحية، ونظرنا في تاريخ الدول الناشئة وتاريخ الدعوات الجديدة.. فما رأينا كرسالة الإسلام، لا في تمكنها واستقرارها، حيث بلغت من أقطارها، ولا في عمق نفوذها وبعد آثارها.. لقد قام الإسكندر بفتوحاته الخاطفة قبل ميلاد المسيح، فهل كانت تلك الفتوحات إلا نار الهشيم سرعان ما اشتعلت، وسرعان ما انطفأت؟ وهل اقتبست البلاد المفتوحة عقائد الفاتحين وموائدهم ونظمهم وآدابهم، ألم يكن الأمر علي العكس أن اعتنق الفاتحون أنفسهم ديانة البلاد التي فتحوها؟

ولقد جرب الاستعمار الأوروبي الحديث حيله الواسعة وأساليبه الجبارة في بلاد الشرق لكي يغزو عقول أهليها وقلوبهم كما غزا أرضهم وديارهم، فهل ظفر منهم إلا بالقشرة السطحية من صور الحياة؟ ثم هو ذا يجلو عن ديارهم واحدة بعد واحدة في آماد مديدة أو غير مديدة، فيخرج منها كما دخلها أول مرة لم يغير شيئًا من جوهرها، لا في عقائدها ولا في لغتها ولا في أسلوب تفكيرها.

أما رسالة الإسلام فإنها حين بسطت جناحيها في أقل من



قرن علي نصف المعمور، كانت كأنما أنشأته خلقا آخر.. لقـد بدلته من أوطانـه المتفرقة وطنا واحـدا، ومن قوانينه المختلفة قانونا واحدا، ومـن آلهته المتعددة إلها واحدا.. لقد نفذت إلي جوهر نفسه فحولته تحويلا وبدلت أسلوب تفكيـره تبديلا، بل عمـدت إلي لغته فأضافـت لغة القرآن لسـانا إلي جانب لسـانه، وكثيراً ما أنسـته لسانه الأصيل وجعلت لسـان الإسـلام هو لسـانه الوحيد، ثم هي لاتزال فـي كل عصـر، تتلقـي معاول الهـدم من أعدائها فتكسـر هـذه الصدمات على صخرتها، وهـي قائمة تتحدي الدهر، وتنتقل من نصر إلى نصر..

فليحاول الباحثون ماشـاءوا أن يعرفوا مصدر هذه القوة الغلابة، وهذا الانتصار الباهر.

إن هـذا النجاح، ليس مـرده في نظرنا إلي سـبب واحد مـن الأسـباب، ولا إلي فضيلـة واحدة مـن الفضائل.. لقد تضافرت عليه شخصية الداعي، ومنهاج دعوته، وشخصية الأمة التي تلقت تلك الدعوة، وطبيعة الدعوة نفسها، ومن وراء ذلـك كله كلاءة الله ورعايته لهذه الرسـالة حتي بلغت كمالها أما صاحب الرسـالة وما أدراك من صاحب الرسالة، فحسـبك منـه أنه عليه الصلاة والسـلام، جمـع خلالا كل واحـدة منها كانت عنصراً فعالا في هذا النجاح، خلالا نعد منها ولا نعدها، ونرسم شيئاً من جوانبها ولا نحدها:



صبر ومصابرة، وجد ومثابرة، وحرص علي بلوغ الغاية، والتزام لأدق حدود الصدق في الوسيلة وفي الغاية، تلطف في الدعوة وقصد في الحجة، وتعليم بالأسوة والقدوة، وتأديب باللمحة والنظرة، وطهر في السيرة والسريرة، لا حقد ولا ضغينة، ولا ختل ولا مواربة، سخاء بما في اليد، وزهد فيما بيد الناس، تضحية بحظوظ نفسه وتنازل عن حقوق شخصه، أما في تبليغ الرسالة وإقامة العدالة، فعزيمة متوفرة لا تني، وصلابة في الحق لا تنثني.

هذه الخلال الفضلي، وأمثالها وأمثال أمثالها تنبع في نفس الرسول الكريم من ينبوع ذي ثلاث شعب: الإيمان، والحب، والأمل.. إيمان بقدسية الرسالة وضرورة حملها، وحب للإنسانية، واهتمام بإنقاذها، وأمل في نجاح الدعوة وبلوغها أقصي غايتها.

نعم إن هذا القلب الذي يمتليء إيمانًا وحكمة، يفيض في الوقت نفسه حنانًا ورحمة، ويطالع في الأفق دائمًا أملاً باسمًا في النجاح والفلاح.. لا أقول: إنه يفيض رحمة بأتباعه وحسب. فإنه وإن كان لأتباعه من رحمته النصيب الأوفر، فهو- كما وصفه الله رحمة للعالمين، لأعدائه وأوليائه أجمعين، حريص على خيرهم وسعادتهم، مشفق على عنتهم وشقوتهم.



﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
(التوبة: ١٢٨)

ولا أقول: إنه كان يداعب أملاً في نجاح جزئي يخص عشيرته الأقربين، أو يخص أم القرى ومن حولها، ولكنه كان يحمل أملاً في نجاح محيط شامل، بتنظيم البشرية كلها.. ألم تر كيف كان كل انتقاص من محيط هذا النجاح. انتقاصا من طيب نفسه ونعيمها، وزيادة في أحزانها وآلامها؟ هذا القلب الرحيم كيف يطيب له عيش وهو لا يزال يري طائفة من إخوته في الإنسانية، يعيشون في ظلمة الضلالة والجهالة، أوفي حمأة الفساد والرذيلة، أو تحت نير الذل والعبودية لغير الله؟ كيف يطيب له عيش وهو كلما حاول استنقاذهم وتكريمهم وإعزازهم تفلتوا من يديه، وترددوا أمامه في الهاوية متهافتين- على ضعفهم- كما يتهافت الفراش على النار، لا بد إذا أن يعيد الكرة. وأن يجدد التجربة مرة بعد مرة، عسى أن يتحقق له هذا الأمل المنشود، فتشرق الأرض كلها بنور ربها، وتصبح وقد ملئت برًا وعدلا، وسعادة وكرامة... إيمان قوي، وحب عميق، وحرص على اقتناص الأمل البعيد، ذلك هو سر عزمه المتوقد وجهاده المتجدد الذي كان أول عوامل النجاح..

هذا العامل من جانب صاحب الرسالة. يسنده ويؤيده



عامل آخر من جانب الأمة التي تلقت تلك الدعوة والأرض التي بزغ فيها نورها.. أرض بكر لم يدنسها في التاريخ كله أقدام الفاتحين، ولم تتحكم فيها يوما ما أيدي الغاصبين، وأمة ألمعية الذهن، مرهفة الحس، حفيظة للحمى. أبية للضيم، ما هو إلا أن ذهبت عنها المقاومة الغريزية الأولى لكل غريب، وما هو إلا أن فتحت عينها على كنه النور الجديد، وإذا هو قد ملك عليها شعورها وتفكيرها، فحملت مشعله بسواعدها القوية، وقلوبها الفتية.. الحمية إذاً هي الحمية، ولكنها تبدلت حمية الحق بحمية الجاهلية.

هكذا تجاوبت نفسية الداعي والمدعو، فالتقت القوتان في حلقة مفرغة، حملت إلي العالمين رسالة الإسلام.

وبعد- فما رسالة الإسلام؟ إنها رسالة تدعو إلى نفسها بنفسها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، رسالة نزيهة القصد مجردة من كل غرض، إنها ليست رسالة العلو والاستعباد ولا رسالة الطغيان والفساد.. إنها رسالة النور والإيمان، والعدل والإحسان، رسالة الفطرة السليمة، والأخلاق الكريمة، والسياسة الحكيمة. فلماذا لا تكون رسالة الإنسانية كلها!؟؟

لماذا لا تعتنقها البشرية جمعاء؟!

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(القصص: ٥٦)



مع التشريع الإسلامى

لا جدال فى أن التشريع الإسلامى، إنما يقوم على أسس سليمة متينة، لا تضعف ولا تتزعزع، فهو تشريع مرن يتطور بتطور الحياة، ويتجاوب مع مصالح الناس وحاجياتهم، دون أن يفرض عليهم عنتًا أو حرجًا.

وهو فوق هذا غنى بثروته التى لا تنفد، هذه الثروة التى تلمسها بنفسك فى العقائد والأخلاق والقيم الإنسانية، وفى أصول القوانين والدساتير والنظم السياسية والاجتماعية.

هناك عنصران يكونان التشريع الإسلامى:

أولهما عنصر العبادات، وهى التى تتمثل فى العبادات بأنواعها: العقلية والروحية والبدنية.

والعقيدة هى الإشعاع الذى يمد هذه العبادات بالضوء، فتدب فيها الحركة والحياة، وتتجاوب مع العقيدة، فتؤدى كاملة غير منقوصة، وتؤدى هى وظيفتها أيضًا كاملة غير منقوصة، فى تهذيب النفس والروح والقلب.. والمسلم حين لا يؤدى هذه العبادات المفروضة، ليس معناه ألا عقيدة له إن له عقيدة، ولكنها أشبه ما تكون بالآلة المعطلة، ويوم يقدر لهذه الآلة أن تتحرك ستؤدى واجبها كما ينبغى، فى تسليط إشعاعها على العقل والجسد، لتتعاون معًا.

***



والعنصر الثانى، عنصر المعاملات، فالناس فى حياتهم مضطـرون إلى التعامل، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما إليهما، بل هى شاملة تمتد إلى العلاقات بشتى ألوانها والروابط فى مختلف أنواعها.

والتشـريع الإِسـلامى فى جميع مراحله وأطـواره، وفى جميع وسائله واتجاهاته، إنما يهدف إلى الإِصلاح الخلقى والنفسـى والفكـرى، والإِصـلاح الاجتماعى والسياسـى والقانونى وليس من شك فى أن غاياته إنما تلتقى عند إيجاد مجتمع سـليم نظيف، وشـعب ناهض قوى، وإخاء عالمى يقوم على أساس من الحب والعدل والمساواة والسلام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾

(الحجرات: ١٣)

***



فى العقيدة

إذا تكلمنا بلغة العلوم الرياضية نستطيع أن نضع هذه المتساوية :

إيمان + إسلام = دين . . فالدين حقيقة مركبة من عنصرين ، عنصر نظرى هو الاعتقاد ، وهذا هو الإيمان ، وعنصر عملى هو ثمرة الاعتقاد . . وذلك هو الإسلام .

وإذا تكلمنا بلسان الصناعات التركيبية ، نقول : إن الدين يمثل بناء شامخًا أساسه الإيمان . . والطبقات المقامة على هذا الأساس هى الإسلام .

وإذا تكلمنا بلسان علم الحياة ، نقول إن الدين فى جملته يشبه شجرة مباركة جذورها مستقر فى أعماق القلوب ، وهذا هو الإيمان ، ثم تمتد فروعها فى القلب ، حتى تظهر على اللسان والجوارح . . وهذا هو الإسلام .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾

(إبراهيم : ٢٤-٢٥)

فهذا هو الإسلام والإيمان ، وهو الدين فى جملته .

أما الإيمان بدون إسلام فهو كنواة جافة لا حياة فيها . .

وأما الإسلام بدون إيمان فهو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .



ولنبدأ بالبحث عن العنصر الأول، وهو الإيمان، متسائلين: هل الإيمان وظيفة العقل والفكر؟ أم وظيفة القلب والوجدان؟ أم يلزم أن يشترك فيه العقل والقلب معًا؟

الواقع أننا إذا نظرنا فى القرآن الكريم نجده يجعل أساس العقيدة عملاً عقليًا لا يتبع العاطفة، ولا المنفعة الفردية ولا الاجتماعية.

هكذا نراه ينعى على الإمعات الذين يبنون عقائدهم على مجاراة العرف أو اتباع الآباء أو طاعة السادة والكبراء.. كما نراه ينعى على الذين يتجرون بعقائدهم ومبادئهم جريا وراء الأرباح والمغانم، وانضمامًا إلى الصف الذى يجر لهم منفعة عاجلة، أو يدفع عنهم مخافة عاجلة:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾

(القصص: ٥٧)

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ ﴾ (المائدة: ٥٢)

ولكنه يدعونا دائمًا إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل، والتفكير الحر فى الآيات والأدلة:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾

(يونس: ١٠١)



﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

ثم نراه يصف دعوته إجمالاً بأنها دعوة مستنيرة، قائمة على نور البصيرة:

﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

(يوسف: ١٠٨)

بل تراه يلخص وصاياه لطالبى الوصول إلى الحق فى وصية واحدة رئيسية:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ﴾

(سبأ: ٤٦)

من هذا كله يتبين أن أساس الإيمان فى نظر القرآن هو المعرفة العقلية، ولكننا نرى فى الوقت نفسه أن القرآن لا يكتفى بهذه المعرفة العقلية حتى ولو بلغت درجة اليقين، ما لم يركن لها القلب، ويطمئن لها الوجدان، ويتجاوب صداها فى أعماق الضمير.. فالذى يعرف الحقيقة معرفة عقلية، ولكنه يعدها حقيقة تفهة لا طعم لها، أو يجدها حقيقة مرة يمجها ذوقه ويكاد يَشرَق بها، مثل هذا كمثل الذى يتصور معنى الجوع والعطش فى الوقت الذى لا يشعر فيه بجوع ولا عطش، أو كالذى يدرك معنى الحب والشوق



وليس محبًا ولا مشتاقًا، أو كالذى يعرف عنك صفة من صفات الفضل ولكنه يحسدك عليها ويتمنى زوالك أو زوالها عنك.. كل هؤلاء فى نظر القرآن معرفتهم ليست من الإيمان فى قليل ولا كثير.. هكذا يقول فى قوم رأوا الآيات مبصرة فقالوا: هذا سحر مبين

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل: ١٤)

ويقول:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾

(البقرة: ١٠٩)

الإيمان إذًا معرفة تتغذى بها النفس، وتهضمها وتتمثلها، وتعدها جزءًا من كيانها، معرفة يشعر الفؤاد معها ببرد وثلج.. ولا تجد النفس فيها أثرًا من الضيق أو التبرم:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾

(النساء: ٦٥)



إنه لابد من الإيمان من عمل العقل والقلب جميعًا.

ولكن لا يفوتنا أن عنصر العلم والمعرفة العقلية يكون أولاً، ويكون ركون القلب بعد ذلك على بصيرة وعلى هدى من نور العلم والمعرفة، وهذا الترتيب تجده صريحًا فى كتاب الله عز وجل:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾

(فاطر: ٢٨)

فجعل العلم بالحق أولاً.

ولقائل أن يقول: إذا كان النظر العقلى هو أساس الإيمان، فما قيمة إيمان العوام، ألا تحكم عليه بأنه غير سليم ولا مقبول عند الله؟ لأنه لا ينبنى على نظر واستدلال؟

ونحن نعتقد أنه ليس من صواب الرأى أن نصدر هذا الحكم القاسى بصفة عامة، ولا بصفة أكثرية؟ بل بالعكس، نرجو أن يكون إيمان أكثر العوام مجزيًا ومنجيًا، لأنه ليس من شرط صحة النظر والفكر أن يكون فى مقدمات مرتبة، ولا فى أوضاع منطقية أو لغوية سليمة، بل ليس من اللازم أن يترجم فى عبارة، فليس كل من عجز عن التعبير محرومًا من حسن التفكير.. وبحسب المرء أن يصل إلى المعرفة من أقرب باب من أبوابها الموصلة.. وما أكثر هذه الأبواب المفتوحة أمام النظر فى الأنفس والآفاق.. والعقيدة



الإسلامية عقيدة سهلة واضحة لا تعقيد فيها، فطرية لا تصنع فيها، يستوى العامى والمتعلم فى الوصول إليها بأيسر نظرة وأقرب لفتة.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾

(الروم: ٣٠)

وعنصر الدين الآخر هو الإسلام، وللإسلام أنواعٍ العمل التى تكون عنصره والتى تعد مظهرًا للإيمان ودليلاً عليه، وتثبيتًا له فى الوقت نفسه.

وللشجرة المباركة التى قلنا إنها تمثل الدين بعنصريه: الإيمان والإسلام، الشعيرات الرفيعة التى تنبت من النواة فى باطن الأرض قبل أن تبرز ساقها إلى سطح الأرض.. أريد أن أقول لك إن الفروع العملية التى تمثل الإسلام ليست كلها أعمالاً ظاهرة يدركها الحس، بل إن الإيمان يثمر أخلاقًا كريمة قبل أن يثمر أعمالاً مستقيمة، فأول ما ينبت منه فى النفس فضائل معنوية كالإخلاص ومحبة الله والرسول أشد مما سواهما، وإرادة الخير للغير، والرحمة وغير ذلك، ثم تظهر ثمرات هذه الأخلاق والفضائل النفسية على اللسان والجوارح.

فإذا ما برزت هذه النبتة إلى الخارج وأخذت مظهرها على اللسان والجوارح، فإنها تتفرع إلى ثلاث شعب رئيسية:



الشـعبة الأولـى: إعلان هذه العقيـدة، والاعتراف بها، فـإن من امتلأت نفســه بعقيـدة اندفع إلى التعبيـر عنها.. وهذه هى الشهادة.

الشـعبة الثانية: العمل بما تمليه هذه العقيدة: بامتثال أوامـر الله، واجتناب محارمه، والتزام المرء ذلك فى سـره وعلانيته، فى سيرته الشخصية، وفى عبادته، وفى معاملته، وفى فضائله وأحكامه.

الشعبة الثالثة: نشر هذه العقيدة والدعوة إليها، والأمر بما تعرفه من معروف، والنهى عما تنكره من منكر.

هذه الشـعب الثلاث نجدها مجموعة واضحة فى كتاب الله عز وجل:

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

(فصلت: ٣٣)

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

نزعة الإلحاد:

إذا كانت العقيدة الإسلامية إلى هذا الحد من السهولة واليسر والانسياق مع الفطرة، فكيف نفسر نزعة الشك والجحود التى أخذت الدعوة إليها تنمو وتزداد عندنا فى هذا الوقت؟



ونحـن نعتقد أيضًا أن نزعة الشك البريئة لا تكون إلا وليدة الغفلة والذهول.. فالرجل الذى استغرقت مشاغل الحياة ومشاكلها كل همه، ولا تترك له فراغًا من الوقت ولا من البال يرفع فيه رأسه ليفكر فى الحقيقة العليا، هذا لو سألته عن هذه الحقيقة لكان من شأنه أن يقول لك: لا أدرى، لأنه عنها فى شغل، وهو عنها غافل ذاهل، والقرآن يعالج هذه النفوس الغافلة بدوام قرع الأجراس لإيقاظها ولفتها إلى الآيات المنشورة فى كل مكان، كيلا يقول الناس بعد ذلك:

﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

(الأعراف: ١٧٢)

أما نزعة الجحود فإنها فى الغالب وليدة الغرور: الغرور بنوع من العلم يظن صاحبه أنه أحاط بكل شىء علمًا:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾

(غافر: ٨٣)

أو الغرور بنوع من القوة، حتى يقول الأقوياء:

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾

(فصلت: ١٥)

وهكذا يظن الإنسان الذى أوتى شيئًا من العلم أو من القدرة أنه أصبح مستغنياً عن كل شىء.. وعن الله.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾

(العلق: ٦-٧)

هذا الغرور بنوعيه يجد لـه مجالاً فى عصور الحضارات المادية على أثر اكتشـاف علمى جديد، أو اختراع صناعى مبتكر.

ولكنه لا يجد له مجالاً حتى فى هذه العصور نفسها إلا فى عقول أدعياء العلم، أو أنصاف المتعلمين، الذين يسارعون إلـى إنكار كل ما لم يكتشـفه العلم بالفعـل، ويزعمون أن كل مـا خرج عن نطـاق هذه العلـوم الجزئيـة لا وجود له، كلمة لا يجرؤ أن يقولها عالم راسـخ، لأنه يعرف أن كل ما كشفته العلوم منذ القدم لا يبلغ قطرة من محيط من حقائق الكون، ويعرف أن هذا التقدم العلمى المتزايد نفسه يشير إلى مـدى غير محدود مـن المجهولات ولا متنـاه.. فكما لا يجـوز أن ينكـر فرع من العلـم أو الصناعة مـا أثبته فرع آخر منها، كذلك هذه العلوم والصناعات جملة لا يجوز أن تنكـر ما لم تحط بعد من أسـرار الكـون الحاضر فضلاً عن بدايتـه ونهايتـه، فضلاً عن أن تنكر الحقيقـة الكبرى التى ليسـت من موضوع هذه العلـوم، ولكنها من موضوع العلم الكلـى الأعلى، حقيقة تسـتند كل الحقائق الجزئية إليها، ولا يمكن عقلاً أن نفسـر هذه الحقائـق الجزئية، إلا بتلك الحقيقة الكلية.



هذا الغرور الإنسانى بشعاع من العلم يظنه كل العلم أو بنسمة من القدرة يظنها كل القدرة، هو الذى يثير فى الإنسان غالبًا نزعة الجحود والإنكار، ويجعله يكاد يؤله نفسه.

ولم يقف القرآن مكتوف اليدين، بل أخذ يتحدى هذا الغرور بنوعية تحديًا يرغم له أنف كل علم، وتضمحل أمامه كل قوة.. فهو يتحدى العلماء جميعًا بمفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله: علم الساعة، وعلم وقت الغيث، وعلم ما فى الأرحام، وعلم ما فى غد، إلى آخره، ثم يتحدى الأقوياء جميعًا أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له أو أن يستنقذوا منه ما سلبه منهم، ويتحداهم أن يدرءوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين، ويتحداهم أن يبدلوا سنة الله فيأتوا بالشمس من المغرب، أو يجعلوا النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، أو الليل سرمدًا إلى يوم القيامة.

هناك عامل آخر من عوامل الشك والجحود معًا، هو عامل خفى غير مباشر، ولكنه سبب قوى فعال.. ذلك هو سلطان الهوى على النفوس، وحب ارضاء الغرائز الدنيا، والرغبة فى النزول على حكم الشهوات، والتحرر من كل القيود والمسئوليات.

هذه الفوضى الخلقية لا توجد على أوسع نطاق إلا فى جو من الإلحاد ينكر القوانين السماوية، ويسخر من كلمة الأديان، ويرفع من القلب شعور الاستحياء من الله، لأن



الذى يريد أن يعطى لنفسه هذه الحرية الخلقية المطلقة لا يمكنه أن يتجنب وخز ضميره.. ما دام هذا الضمير يقظًا واعيًا، وما دامت فكرة الرقيب الأعلى تحل مكانة القدسية فى هذا الضمير.. فلابد إذًا أن يبدأ بمحاولة تخريب هذا الجهاز المقدس، لإخفاء هذه الصورة المرسومة فى لوحة ضميره، ولا يتم له ذلك إلا إذا أغلق النوافذ التى يرى منها نور الله، والتى يسمع منها داعى الله، ثم لا يكفيه هذا لأنه لا يرضى أن يكون كالنعامة تخفى رأسها فى التراب، فتظن أن الصائد لا يراها ما دامت هى لا تراه فلابد أن يتقدم خطوة أخرى، لا لإخفاء الصورة على عينيه فحسب بل لينتزعها من نفسه فيأخذ فى الاستماع لكلمات التشكيك فى وجود الله، ثم كلمات الإنكار لوجود الله، وهكذا يتقلص إيمانه وينزوى شيئًا فشيئًا حتى يكفر لا حبًا فى الكفر، ولا اقتناعًا به من أول الأمر، ولكن لإخلاء الطريق أمام غرائزه ومشتهياته.

إنه يفكر ليفجر، ينكر الإله، ليتخذ إلهه هواه..!

هذه هى النزعات الخفية التى يستغلها اليوم أعداؤنا فى دعواتهم الهدامة المدمرة، فإنهم لكى يخرجوا فينا جيلا منهارًا، مستعبدًا لشهواته، فاقدًا لشخصيته ولقوميته ولمقدساته، يرسلون فى طليعة دعوتهم روادًا من دعاة الإلحاد والكفر، يتسللون فى غفلة أو تغافل من الرقباء



ليمهـدوا لهم الطريق.. إلـى القضاء النهائـى على معنوية شبابنا البرىء الطاهر.

ولو أن هذا الشـباب ترك على فطرته الساذجة، ومنعت عنه دعايات السـوء، ما استبدل الكفر بالإِيمان ولا الفجور بالطهر والعفة والحياء..!

***

التفانى فى العقيدة:

إن الذى بدون عقيدة، لا يسـاوى شيئًا، فالعقيدة أساس له ولا يسـتقر بناؤه لحظة بدونه، والعقيدة القوية هى التى تحمل صاحبها على التفانى فيها.. والتضحية من أجلها.

وآثـار العقيدة فى حياة الأفراد والأمم مظاهر يدركها كل ذى عينيـن.. ولكنهـا تختلف ضعفًا وقوة وضيقًا وسـعة، تبعًا لحال العقيدة ذاتها ومدى سلطانها على النفوس.

فهناك عقيدة ضامرة ذابلة ضئيلة هزيلة، زاحمتها شئون الحيـاة اليومية، فألجأتها إلى حاشـية من حواشـى النفس، وتركتهـا عاطلـة لا عمل لهـا، هامدة لا حـراك بها، إلا فى فترات قصيرة لا تلبث أن تعود بعدها إلى سباتها العميق.. تلـك وا أسـفاه هى حال العقيدة فى نفـوس الكثرة الكاثرة منا أفـرادًا وجماعـات، أليس أكثر النـاس يؤمنون بواجب التضافر والتآزر وهم أشـتات متفرقـون؟ ويؤمنون بضرورة الأخـذ بأسـباب القـوة الماديـة والمعنويـة وهـم ضعـاف



متثاقلون ؟ ويؤمنون بفريضة البذل والتضحية وهم أشحاء حريصون على الحياة، مثلهم فى ذلك كله مثل المريض الذى يعتقد أن لا شفاء له إلا بتجرع مرارة الدواء، ولكنه تخذله عزيمته وتقعد به همته عن تناوله.. فما غناء هذه العقيدة الجافة الميتة التى لا توقظ نائمًا ولا تحرك ساكنًا ؟

وهناك عقيدة نصف عاطلة تهيمن على جانب واحد من جوانب السلوك ولا سلطان لها على الجانب الآخر منه.. مثال ذلك أننا نرى فريقًا من الناس يحسنون معاملة الخلق، ولا يحسنون معاملة الخالق، يعجبك من أحدهم أنه لا يخون الأمانة أو لا يشهد الزور، أو لا يجور فى الحكم، ولكنك ترى هذا الصنف من الناس مقطوعى الصلة بالله الذى خلقهم ورزقهم، لا يوجهون وجههم إليه، ولا يعتمدون فى شئونهم عليه، ولا يذكرونه إلا قليلاً.. وترى فريقًا على العكس من ذلك، تبلغ بهم المحافظة على مراسم العبادات، ونوافل الطاعات، أنهم يتورعون عن نقص تسبيحة منها أو تكبيرة، ولكنهم لا يتورعون أن يحكموا الهوى فى أحكامهم، وأن تنطوى على الحقد والحسد قلوبهم، وأن يتهموا الأبرياء بما يعلمون براءتهم منه، وتراهم وقد أذل الحرص والطمع أعناقهم، لا يأبون أن يقفوا مواقف الذلة والصغار، اجتلابًا لعرض من أعراض الدنيا، أو استبقاء لما فى أيديهم منه.. هؤلاء وأولئك إن



كانت لهم عقيدة فهى عقيدة مصابة بشلل نصفى ويوشك أن يسرى الشلل إلى نصفها الآخر .

وأخيرًا هناك عقيدة سوية قوية حية نامية، يقظة واعية، مسفرة مشرقة، يغمر ضوؤها جوانب النفس، ويسرى ماؤها فى أغوار القلب، فهى للضمير مناره الذى يهديه سواء السبيل، وهى للإرادة قوتها النازعة الوازعة، عن أمرها يصدر صاحبها فى حركاته وسكناته، ونحو أهدافها يتوجه فى أقواله وأعماله، يتلقى دائمًا وحيها ويستلهمه، ويتوخى ارشادها ويترسمه .

فإذا أصبح ذلك دأبه ودينه صغرت فى عينه الدنيا وزينتها، وتضاءلت فى نفسه نوازع الهوى وحاجات الجبلة، فلا يفكر فى مطالب شخصه إلا لمامًا، ولا يركن إلى الدعة واللهو إلا استجمامًا . . على أنه حين يلم بشىء من ذلك فإنما يتناوله باسم العقيدة والمبدأ، وعلى النحو الذى ترسمه له العقيدة والمبدأ، استعانة على الحق وتقويًا على الجد .

أولئك حقًا هم أصحاب العقائد والمبادئ الذين فنيت أشخاصهم فى عقائدهم، وانمحت أهواؤهم فى مبادئهم، وأصبحوا كأنهم هم عقائد متجسدة، ومبادئ ماثلة تمشى فى الناس . . أولئك هم الذين لا تهمهم أنفسهم لأنهم باعوها لله بيعًا رابحًا، أولئك الذين لا تلهيهم تجارة ولا



بيـع عـن ذكر الله وإقام الصـلاة وإيتاء الـزكاة . . أولئك هم الراشدون ، فضلا عن الله ونعمة .

وهـم بعد على مراتب متفاوتة ودرجـات متصاعدة على قـدر التبعـات التـى يحملونها ، وفى مسـتوى الآفـاق التى يمتد إليها نشاطهم فليست مهمة الجندى كمهمة القائد ، وليسـت فضيلة الرشـاد وحدها كفضيلة الرشاد والارشاد مجتمعيـن ، وليـس إصـلاح المنـزل والأسـرة ، كإصـلاح القبيلـة أو المدينة ، ولا قيادة الأمة والشِـعب كقيادة الأمم والشعوب ، ولا هداية العصر كهداية العصور والأجيال .

كل ذى عقيـدة حيـة فعالة يعرف من تجربته فى نفسـه أنه قـد ينوء بحمل الواجبات المتنوعـة التى تفرضها عليه عقيدته ، هذا وهو جندى لا يسـأل إلا عن نفسه ، فكيف إذا أصبح مسئولاً عن نفسـه وعن غيره معًا ، وألقى عليه عبء الهداية والإصلاح فوق عبء الاستقامة والصلاح ؟ ثم كيف تزداد مسـئوليته صعوبة وتعقيدًا كلما ترقى سـلم الزعامة والقيـادة ؟ وأخيرًا كيف تبلغ هذه المسـئولية حد التعجيز والإحالة إذا انتهى إلى رتبة القيادة العالمية الخالدة ؟

نعـم . . أى بصيرة تلـك التى تنفذ مـن وراء الحجب فى هذا الأفق الأعلى ؟ وأى قلب يتسـع لهذه المهمات الجلى ! وأى كاهل يقوم بهذه الرسـالات العظمى إن لم يكن له من السماء عون كريم وتأييد عزيز ؟



إن الذيــن ضربوا المثل الأعلى فى التضحية والتفانى من أجل العقيدة، هم الذين أسســوا تلك الدعوات الإصلاحية، وفــى مقدمتهــم أولو العزم من الرســل، الذيــن حملوا تلك الرســالات الســماوية، ولا ســيما خاتــم النبييــن وجامــع كلمتهــم ومتمــم بنائهــم، محمد بن عبدالله ــ صلوات الله وســلامه عيهــم أجمعين ـ فلقــد كان كل نبــى منهم يدعو وينــادى: يــا قوم! يا قــوم! يا قوم إنى لكم نذيــر مبين.. يا قــوم إنى لكم ناصح أمين.. حتى جاء محمد فجمع الرايات كلها تحت راية واحدة وجعل ينادى: أيها الناس! هذا نذير للبشــر، بل أيها الثقلان.. يا معشــر الجــن والإنس.. هذا ذكر للعالمين.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾

(الأنعام: ١٩)

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

(المائدة: ٣)

ألا مــن ســره أن ينظــر إلــى أعظــم وأدوم وأعــم رســالة إصلاحيــة عرفتها أو يمكن أن تعرفها البشــرية، وســره أن يرى كيف وهبها صاحبها قلبه ولبه، وكيف ملكها ناصيته وجوارحــه وكيف قام وهو فى ســن الأربعين أو زهاءها واقفًا



وحـده فى صف والعالـم كله فى صف . . فمـازال بالأبواب الموصدة حتى فتحت ، والقلوب النافرة الجامعة حتى لانت وألفت ، ومازال يثابر ويصابر ويكافح وينافح ، حتى أمضى رسـالته وأنفذها من ألفها إلى يائها ـ على الرغم من جدتها وغرابتها وسـموها ومثاليتها ، وحتى ربى جيلا يحملها من بعده وينقلها على معبرة التاريخ باسم الله ، ثم اسمه .

من سـره أن ينظـر إلى هذه الصورة العجيبـة فلينظر إلى نبى الإسـلام وهو يؤسـس دعوة الإسـلام . . دعوة ترد عليه أول الأمـر مـن الأقربين إليه فيلتمس قبولهـا عند الأبعدين عنه من بين مواطنيه ثم تلاقى من هؤلاء الصدود والسخرية فيخـرج من بلده محاولاً نشـرها فيما حول مكة ، ثم يكون جوابهـا عنـد هـؤلاء الازدراء والإيـذاء ، فيعرضهـا علـى القبائـل الوافدة فى المواسـم . . ثلاثة عشـر عامًـا وهو فى هذا الشـغل الشـاغل والهم الناصب ، ولا يجـد حوله بارقة أمـل فى انتشـار دعوته واسـتقرارها ، بل يجد مـن قومه فى أثناء إقامته بينهم تألبا وتحزبا ومناصبة للعداوة السـافرة ، حتى أنهم حاصروه هو وعشـيرته بضع سـنوات فى شعب من شـعاب مكـة لا يعاملونهم ولا يكلمونهـم . . فلم يزده العناد منهم والمكابرة إلا مضيا فى الإلحاح والمثابرة ، ولم تزده العقبات والصدمات إلا استسهالاً للصعاب واستعذابًا للعذاب . . ألم تسـتمع إليه حين رجع مـن الطائف وقد رده



أهلها أسوأ رد، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة فجعل يشكو إلى الله ضعف قوته وقلة حيلته، فلم يكن فى شكواه حرف واحد ينم على شىء من الوهن واليأس.. بل إنه ختمها بأروع كلمة يعزفها أرباب المثل العليا إذ جعل يقول فى مناجاته لربه:

«إن لم تكن ساخطًا علىّ فلا أبالى..»

كل ما يعنيه إذًا فى جهاده هو إرضاء ربه وضميره، أما ما وراء ذلك.. أما ما يصيبه فى سبيل ذلك فكله أمر يهون ويزدرى.

أليس هذا أصدق تعبير عن حقيقة المثالية والفناء فى العقيدة؟

وأروع من ذلك كلمته الأخرى التى تناقلتها السير وسارت بها الأمثال، فى إجابته لعمه أبى طالب حين رغب إليه أن يشفق على نفسه، وأن يكف عن مواجهة قريش بهذه الصراحة المؤلمة، فما كان جوابه لا أن قال:

«والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أنزل عن هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه..».

فيالها من عزيمة مصممة لا تقبل مراودة ولا مساومة، ويا لها من رسالة قدسية أعز وأغلى عند صاحبها من ملك الدنيا وملك الشمس والقمر!!



وهـل كانت الهجـرة المحمديـة إلى المدينـة إلا حلقة جديدة من سلسـلة هذا العزم المصمـم على إنجاح الدعوة بكل وسيلة.. وعلى النجعة فى طلب التربة الخصبة لها فى أى بقعة يجدها من أرض الله الواسعة؟

هـذا النبى المهاجر ــ صلوات الله عليه ــ لـم يخرج إذًا إلى المدينة لحماية شـخصه، ولكن لحماية رسالته وإرساء دعوتـه، ولم يكـن خروجه هربًا من ميـدان الجهاد، ولكن استنادًا إلى قلعة الجهاد، إنه جزء من خطة ثنائية مرسـومة فـى السـماء، فالجهاد كـر وفر وقد أحسـن الفر ليحسـن الكر، وكان هذا الفر هو فاتحة العهد الجديد، وأول النصر العزيـز، ومن أجل ذلك نيـط به تاريخ الإسـلام فجعل عام الهجرة منه هو غرة الأعوام.

هكذا نرى العقيدة والمبدأ، هما هدف النشـاط النبوى ومحـوره، فى أول الأمر وآخره، بل هما كل شـىء فى حياة الرسـول.. لهمـا يتحـرك ويسـكن، ومـن أجلهـا يرضى ويغضب، وفيهما يحب ويبغض، بل فيهما يموت ويحيا:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(الأنعام: ١٦٢-١٦٣)



فى الصلاة

الصلاة هى هـذه الرابطة الروحية المثلثـة : بين المصلى وبيـن ربـه ، وبينه وبين إمامه ، وبينه وبين سـائر المؤمنين ـ هـذه الرابطـة الروحية كثيـرًا ما تتمثل فى صورة مجسـمه ، فـى جماعـة حاضـرة ، نراهـا رأى العيـن ، ونحسـن فيهـا تزاحـم المناكب ، وتجـاوب الأصوات ، وتناسـق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ، وإذا تجردت من الأشباح ، فإنها لتبقى ماثلة فى القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغى للذى يصلى فى خلوتـه أن يظن نفسـه منفـردًا منعزلاً فى موقفـه . . كلا ، بل ليذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ألوف الألوف من الصفوف ، فى مشـارق الأرض ومغاربها يشـدون أزره ، ويؤيدونه فى جوهر مطالبه . . إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتهـا ، ويرددون مقالتـه عينها . . إنه ليـس فيهم من يقول : إياك أعبد وإياك أستعين بل كلهم يقول :

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ .

ليس فيهم من يقول : اهدنى ! بل كلهم يقول :

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

ليـس فيهـم من يقـول : السـلام علىّ بل كلهـم يقول : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .



هكـذا ينبغي لـكل مصل أن يعد نفسـه عضـوًا فى وفد الرحمـن، لا يناجـى ربه بلسـانه وحده، بل بلسـان إخوانه المؤمنيـن، الحاضريـن منهـم والغائبيـن.. ألا إن الوحدة التى يرمى هذا التشـريع إلى تحقيقها، لأوسع مجالاً وأبعد مـدى، من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر، أنها تريد أن تنتظم فى سـياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة.

بـل نقول إنها أوسـع رقعة من أن تقـف عند عصر النبوة المحمديـة، وإنها تتجاوز ذلك العصـر إلى عصور النبوات الأولـى، ذلك أن الشـريعة المحمدية لم تنشـئ هذه القبلة إنشـاء، وإنما جـاءت مصدقة ومقررة للقبلة التى أسسـتها النبـوات السـابقة، وهـذا مـن أوضـح الأدلة على سـماحة الإسلام وسعة أفقه، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين، وتوحيد رابطـة المؤمنين بالأديان السـماوية كلها.. ولقد حقق الإسـلام هـذه الوحدة علـى مرحلتيـن متصاعدتين: ففـى المرحلة الأولى انضم إلى صـف إخوانه من أنبياء بنى إسـرائيل، وفى المرحلة الثانية والأخيـرة صعد إلى الأصل الأصيـل.. إلـى الكعبـة التى هـى أول بيت وضـع للناس، منضمًـا بذلك إلـى صف أبى الأنبياء، الـذى يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته، وإن لم يستقبلوها فى صلاتهم.

***



ولقد كان للقبلة التى وحدت صفوف المسلمين، وربطت بين مشاعرهم، كان لها قصة وآية قصة، فقد ظل بيت المقدس قبلتهم، وحال الزمن ثم صارت الكعبة البيت الحرام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأثار هذا التحول لدى خفاف الأحلام شيئًا من الريب والشكوك، ولكن القرآن الكريم تولى نقض هذه الشكوك ودحضها، مجليًا فلسفة التشريع وحكمته.

ترى ما سر هذا الاهتمام البليغ بتعيين القبلة وتوحيدها؟ وما سر هذا التطور فى تشريعها؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنثورة التى لا يشترط فى صحتها ولا فى قبولها، أن يتخذ الداعى وضعًا خاصًا من الأوضاع، ولا أن يلتزم أسلوبًا معينا من الأقوال والأفعال، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفرادًا وجماعات؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربه؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب، والتماس المعونة منه؟ أو ليس الله يسمع لمن حمده على أى وضع كان، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه؟

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾

(البقرة: ١١٥)



هذه أسـئلة تجول بالخواطر ، ولكنها لا تلبث بعد قليل مـن التأمل أن ينجلى وجه الحكمة فيها . . أجل إن قليلاً من التأمـل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته ، حين شـرع الصلاة على هذا الوجه الموحد فى أسـلوبه وصورته ، وحين نصب لنـا فيهـا إماما نبيًـا نقتدى بـه أو بمن ينوب عنـه ، وحين أقـام لنا بيتًا نتوجه فيـه إليه بوجوهنا ، ونحـج إليه بقلوبنا أو بأبدانـنـا ، أراد بذلـك أن تكون الصـلاة عبادة جامعة بين علامتى الإيمان : المحبة لله ، والمحبة فى الله ، أراد ألا تكون الصـلاة صلة واحـدة ، بل مجموعة من الصـلات : صلة بين العبد وربه ؟ وصلة بينه وبين أئمته من المرسـلين ، أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين .

لقـد كبر هذا التحويـل على كثير من الناس ، وحسـبوه لهـوًا وعبثًـا ، أو حيرة وتـرددًا ، وما هو بعبـث ولا بتردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسـه ، يسير صاعدًا نحو الهدف الأخير .

ولقد سـماه علماء الظاهر نسـخًا وما هو بنسـخ إلا فى الصورة والرسـم . . أما فى جوهره فهو التـدرج والترقى فى توحيد كلمة الأديان . . أرأيت الولد البارّ حين يسـير قاصدًا إلى بيت أبيه . . فإذا مر فى طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعـرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما ، تطييبًا لخاطرهم ، ثم يكون مستقره فى البيت المشترك ، الذى يحمل الأسرة



كلها . . فذلك التطور الذى حدث فى تشريع القبلة .

فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هى بيت الأسرة وهى منزل الجد الأعلى . . وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية . . وإنما كان همه أول الأمر وآخره ، هذا الانضمام والالتئام بين أسرة المؤمنين ، وفى وحدة القصد ، والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين والمرسلين .

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء : ٩٢)

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(البقرة : ١٤٢)

* * *



فى الزكاة

الزكاة هـى ثالث أركان الإِسـلام الخمسـة، وإذا كانت الشـهادتان بمثابـة غرس للعقيـدة، وتثبيـت لأصولها فى أعماق القلب.

وإذا كانـت الصـلاة بمثابـة ربـاط متيـن بين الإِنسـان وخالقـه، وترويـض للنفس على النظـام والطاعة، وللقلب على الخشـوع فـى غير مذلة، وتهذيـب للخلق وصهره فى بواتق الديمقراطية الخالصة.

فإِن الزكاة لبمثابة الضريبة الإِنسـانية، يدفعها المقتدر إلى مسـتحقيها، ليحيى بها نفوسًـا، ويشـبع بهـا بطونًا، ويمسح بها دموعًا، ويزيل بها آلامًا.

والزكاة غير الصدقة، فالصدقة يدفعها المسلم متطوعًا، وهو حـر حين يدفعها، كبيـرة كانت أم صغيـرة، لا يتقيد بقيـود، ولا يخضـع لشـروط، فهى تنبع من الإِحساسـات والمشـاعر والعواطـف وتدفـع كلمـا أحس المسـلم نحو المحتاج بمزيـج من العاطفة والشـفقة، وللصدقة مثوبتها عنـد الله، وأجرهـا يبـدأ من عشـرة أضعافها إلى سـبعمائة ضعف.. إلى ما شـاء الله ويكيف هذا الأجر ظروف الصدقة ودوافعها وأهدافها.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ



أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(البقرة: ٢٦١)

أما الزكاة، فهى أشبه ما تكون بالضريبة الإنسانية، يدفعها من يملكون نصابها إلى بيت مال المسلمين، ليتولى صرفها فى أوجهها، وقد روعى فى أوجه الصرف هذه أن تمت معظمها إلى الإنسانية بصلة، فالإسلام دين إنسانى قبل كل شيء:

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(التوبة: ٦٠).

وإذا كان المسلم حرًا إزاء الصدقة، له أن يبذلها متى يشاء وأينما أراد، فليس له هذه الحرية إزاء الزكاة، لأنها فرض عين مقدس، ما دام فى الدولة حكومة إسلامية قائمة تنظم سياستها المالية: ولقد فكر بعض المنافقين فى أوائل عهد الخليفة الأول، أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فكر هذا البعض فى التمرد على الزكاة وامتنع عن دفعها، فلم يتوان الخليفة لحظة فى قتالهم رغم معارضة عمر ـ رضى الله عنه ـ ولقد قال الصديق وقتذاك:



«والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم عليه» !

وكيف يتوانى خليفة المسلمين فى مقاتلة المرتدين الذين يريدونها فتنة بتمردهم على الزكاة، لا يعلم خطرها إلا الله وحده؟

وإذا لم يوجد فى الدولة بيت مال للمسلمين، فليس معنى هذا أن يصير المسلم فى حل من دفع ما عليه من الزكاة، بل يجب أن يصرف ما عليه فى تلك المصارف الثمانية التى حددها القرآن أو فى بعضها، والله سائله عن ذلك ومحاسبه عليه حسابًا دقيقًا، وهذا هو الرسول ﷺ يقول كما روى أبو ذر عنه، قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ، قال: «والذى نفسى بيده»، أو «والذى لا إله غيره» أو كما حلف «ما من رجل تكون له إبل أو بقرة أو غنم لا يؤدى حقها إلا أتى بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها، كلما جازت أخراها رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضى بين الناس» (رواه مسلم).

إن فريضة الزكاة بمثابة رابطة بين الإنسان وربه من ناحية، وبينه وبين المجتمع من ناحية أخرى، وكأن الإسلام بفرضها أراد أن يلفت نظر المسلم إلى ضرورة شكر الله على ما أسدى إليه من نعم، حتى يؤدى الزكاة، وإلى أنه عضو فى مجتمع يجب أن يكون متعاونًا متساندًا،



كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمي.

إن الشرائع بأسرها، سماوية كانت أم وضعية، لم تتضمن تشريعًا كتشريع الزكاة الذى تضمنته شريعة الإسلام، هذا التشريع الإنسانى الذى يفرض على المسلم الغنى ضريبة مقدسة، يفيد منها المجتمع الذى يعيش فيه، وتفيد منه الدولة التى ينتسب إليها.

الإسلام يدعو المسلمين جميعاً إلى الوحدة، ويعتبر أن جميعهم تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد واحدة على من سواهم، وهذا هو التضامن الجماعي:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٩٢).

والإسلام فرض الزكاة، لتكون بمثابة ضريبة إنسانية مقدسة، يبذلها الغني، ويفيد منها المجتمع والدولة، حتى لا يعيش مسلم معدمًا محرومًا، ولا يبقى غنى أنانيًا جشعًا، وهذا هو الضمان الاجتماعي:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾

(التوبة: ١٠٣).

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾

(المعارج: ٢٤-٢٥).



زكاة الفطر

إن زكاة الفطر لتضمن جانبًا إنسانيًا، له أهميته فى نظر الإسلام، وأثره فى حياة الأمة الإسلامية، إنه نظام الصدقات والزكوات الذى كتبه الإسلام فى نهاية رمضان. ليكون مخباراً لإيمان الصائم، ومقياساً لمدى تأثر نفسه بالصيام، فالصوم يهدف إلى تنمية الإحساسات والعواطف فى النفس، حتى تحس بآلام غيرها..

وإنه لتشريع فذ فى بابه، لا أقول إنه منفرد وحيد بين التشريعات العالمية فحسب، بل أقول إنه لا نظير له فى التشريعات الإسلامية نفسها، ذلك أن الزكاة فى العادة إنما تفرض على الأغنياء فى فضول أموالهم، أما زكاة الفطر فإنها عند جمهور الأئمة واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء، يواسى بها الغنى الفقير، ويواسى بها الفقير من هو أفقر منه، فكما كانت ضريبة الصبر والزهد فى رمضان فرضًا على الجميع، أصبحت ضريبة البذل والسخاء تنتظم الجميع:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ﴾

(الطلاق: ٧)

هكذا كما يتساوى المسلمون فى الجوع والعطش، يجب أن يتساووا فى الشبع والرى.



إنـى أدعوكم إلـى التفكير مليًا فى سـر هذا التشـريع، لتعلموا أنه تشريع مثالي، يخلق المجتمع المثالى. انظروا إلى هـذه التربية العمليـة على الوحدة والمسـاواة مرتين. تتنـازل الأمـة كلها جملة واحـدة، لتذوق مـع المحرومين طعـم العوز والحرمان، ثـم تصعد الأمة كلهـا آخذا بعضها بأيدى بعض، لترتفع فوق مستوى العوز والحرمان، تتذوق مع المتذوقين طعم الارتقاء الذى يليق بالإنسان.

وهـذه هـى تعاليم الإسـلام فى نصهـا وروحهـا. وإنها لتجربة لها ما بعدها.

لقد رسـم الإسـلام لنا طريـق العزة والكرامـة. فهل من وسـيلة إلى تمهيد هذا الطريق وتنظيمـه؟ وهل لجماعات البر فى الإسلام، ولسائر منظماته وحكوماته أن تبذل جهدًا فى تحقيق هذه المثل العليا؟

* * *

فى الصيام

الصوم فى الإسلام لا يكفى فيه هذا المظهر السلبى المادي، الذى يقوم على اجتناب المفطرات لأى باعث كان، ولأى هدف اتفق.. وإنما هو قبل كل شىء عمل روحى إيجابي، يتحرى فيه العامل الهدف الذى حددته له الشريعة، ويجعل نيته فيه، وفقًا لإرادة ربه منه.. فاعرف إذًا ماذا أراد ربك من صومك، واعمل على أن تكون نيتك وفقًا لإرادته، وليكن أول ما نذكره من ذلك، أن الله الرحيم لا تعنيه من صومك حرارته ومرارته، ولا يناله من جسمك ذبوله وهزاله.. وإنه إذا كانت هنالك أديان ونحل ترى فى ألم الجسم مقصدًا يطلب، وترى فى الارتقاء بالطيبات عدوًا يحارب، فليس الإسلام من بين هذه الأديان، كيف وهو الذى يقول:

﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

(المائدة: ٨٧)

ويقول:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾

(البقرة: ١٨٥)

إنه لو كانت غاية الصوم هى إشعار الصائم بالجوع والعطش، لكان الرجل العادى يكفيه صوم جل اليوم بل



صومـه كله، ولكان الرجـل الفاقد لشـهية الطعام، يجب عليـه أن يضيف مدة أخرى يشـعر فيها بألـم المخمصة، ولكننـا نعلـم، أن الذى يزيد فـى مدة الصـوم ولا يتحلل مـن حرماته ولو بالنية عند غروب الشـمس، آثم وأن مثله فـى الإثـم كمثل الذى ينقص مـن مدة الصـوم فيفطر قبل الغـروب.. ونعلم من جهة أخرى أن الذى يراعى شـرائط الصوم وحدوده، وهو على صومه معان، وله ميسر- مبرور مأجور- كالذى يكابد فيه شيئًا من تغير المزاج.

ليـس هدف الصوم إذا هو هذا الألـم البدني.. وإن كان هذا الألم قد يقع فى طريقه.. إن الله عز وجل حين قال لنا:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾

لـم يقل: لعلكم تتألمـون.. كما أنه لـم يقل: لعلكم تصحون.. أو لعلكم تقتصدون.. وإنما قال:

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

فجعل الصوم اختبارًا روحيًـا وتجربة خلقية، وأراد منه أن يكـون وسـيلتك إلى نيل صفـة المتقيـن، وأداتك فى اكتساب ملكة التقوى.

التقـوى.. هذا هو الهـدف الحقيقي، الـذى إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمـرات مكرهة راغمة، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى:



﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

(الشورى: ٢٠)

إنك لن تحيط بكنه التقوى، ولن تقدرها حق قدرها، إلا إذا عرفت طبقات الكائنات ومراتب الوجود.. فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب:

● مرتبة السيادة العظمى، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد، الفرد الصمد.

● ومرتبة العبودية الدنيا، وهذه هى مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة، والتى ليس لها من الحرية نصيب، كالجماد والحيوان.. وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيرًا فى قبضة شهواته.

● المرتبة الثالثة: تجتمع فيها السيادة على الكون. والعبودية لخالق هذا الكون، وتلك هى المنزلة التى يصعد إليها الإنسان، إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه، ثم جعل يلقى هذه الأوامر على جنوده من القلب والجوارح.

فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها، فصار قائدًا مطاعًا فى جنده، سيدًا مهيبًا فى مملكته الصغيرة، فقد نال صفة التقوى وأصبح جديرًا بالاستخلاف فى الأرض والتمكين له فيها.. وأكرم بعبودية هى عين السيادة.

تلك هى التقوى، التى أراد الله أن تكون ثمرة صيامك..



وهى فى الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعًا . . غير أن للصوم فى تحصيلها أثرًا أوسع وأعم . . والمنزلة التى يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هى أعلى المراتب وأسماها .

إن منزلة الصيام ، هى أسمى مراتب التقوى ، وأكرمها عند الله ، فلأن فى سائر العبادات جوانب ، تحببها إلى النفوس الكريمة ، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة ، ففى الصلاة مثلا ، حلاوة المناجاة ، وفى الزكاة أريحية الجود والكرم ، وفى الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم ، أما الصيام ، فإنه ليس فيه معاونة من الطبع ، بل على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب ، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة . . من العشرة إلى السبعمائة ، إلا الصوم فإن تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد ، كما جاء فى الحديث القدسي :

(كل عمل بن آدم له ، إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزى به) .

ومصداقه فى الكتاب العزيز :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

(الزمر : ١٠) .



هــذا الفضل العظيم إنما هو كما قلنا، لمن فقه حكمة الصــوم وصحح فيه نيته، وذلك إنما يكــون بجعله نهاية الطهــر لا بدايتــه.. فبدايــة الطهــر، طهــر الأبــرار بترك المحارم، ونهاية الطهــر، طهر الأخيار، بالتحرر من عادة التــرف والعيــش الناعم، حتى إذا جاء الغــد، وجد الجد، ودعــا الداعــى إلى التضحيــة العظمى.. نكــون قد أخذنا للأمر عدته، حيث مارسنا الصبر وشدته.. ويومئذ نرضى بالظمــأ، والنصب، والمخمصــة، ولا نرضى أبدًا أن نعود إلــى التــرف والنعيم تحت الــذل وفى قبضــة الغاصب.. وتلك هى عبرة الساعة من درس الصيام.

المعانى الإيجابية فى الصوم

إن مــا فــى الصوم من كبــت وحرمان، ليــس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وســيلة إلى غاية نبيلة.. إنه التدريب على الســيادة والقيــادة، قيادة النفس وضبط زمامهــا، وكفهــا عن أهوائهــا ونزواتها، بل إنه التســامى بتلك القيادة على أعلى مراتبها.

إنــك بالصوم تملــك زمامى شــهوتك وغضبك.. وإنه لصبــر يجــر إلى صبر، ونصر يقود إلــى نصر.. فلئن كان الصــوم قد علمــك أن تصبر اليوم طائعًا مختــارًا فى وقت الأمــن والرخاء، لأنت غدًا أقدر علــى الصبر والمصابرة، فى البأســاء والضــراء وحين البأس، ولئــن كان الصوم قد



علمـك كيف تنتصر اليوم على نفسـك، لقد أصبحت به أجـدر أن تنتصر غدًا على عـدوك.. وتلك عاقبة التقوى، التى أراد الله أن يرشحك لها بالصيام.

إن هـذا الهـدف الـذى صورنـاه وحددنـاه إنمـا يقوم فـى منتصف الطريـق الذى رسـمه الله للصائميـن.. وإن فـى نهاية هذا الطريـق، هدفًا آخر، بـل أهدافًا أخرى أهم وأعظـم.. وفى الحق أنه لـو كان كل ما يطلب من الصائم هو أن يكف نفسـه عن شـهواتها وانفعالاتهـا، ولم يكن أمامه عمل إيجابى جديد يسـد به هذا الفراغ، إذًا لكانت تجربة الصـوم، انتقاصًـا للطاقة العاملة مـن ناحية، دون إمـداد لها من ناحية أخـرى.. وإذًا لكانت على حد تعبير العلمـاء «تخلية» بـلا تحلية «أو تجارة مأمونة الخسـارة» ولكنها لا ربح فيها ولا غنيمة.

فهل شـريعة الصوم فى الإسلام هى تلك الصورة العارية الجرداء؟ كلا إنها عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشـطرها الثاني.. إنها شـجرة جذعها الصبـر، ولكـن الله لا يريد للصائـم أن يترك هـذا الجذع قاحلاً، بل يريد أن ينبت على جوانبه أغصانًا من الشـكر، وأن يتوهـج هامته بأوراق وثمار مـن الذكر والفكر.. وإن مـن تأمل كلمة التقـوى، التى عبر بها القـرآن الكريم فى حكمة الصيام، يجدها منطوية على هذين الشطرين:



فهي في شطرها الأول كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وإذًا فليس الشأن كل الشأن، في أن يغلق الصائم منافذ حسه، ويسكت صوت الهوى في نفسه، فذلك إنما يمثل إغلاق أبواب النيران، ولكن الشأن الأعظم في أن يكون إغلاق منافذ الحس فتحًا لمسالك الروح، وأن يكون إسكات صوت الهوى تمكينًا لكلمة الحق والهدى فتلك هي مفاتيح أبواب الجنان.. ومن كان في شك من أن هذا الجانب الإيجابي، هو الهدف الأخير لشريعة الصوم، فليقرأ كتاب الله، وسنة رسوله صلوات الله عليه.

والعجب في هذا التوجيه.. أن الإسلام لم يتركه دعوة مرسلة، بل وضع له مناهج معينة، ورسم له خططًا مفصلة، ذلك أنه لما جعل شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح فيه للأرواح بابين تتدفق منهما: بابًا إنسانيًا، وبابًا ربانيًا.. فأما انطلاق الروح في رمضان من الباب الإنساني، فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والإدخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.. وهذا هو الصوم كما فهمه إمامنا الأعظم صلوات الله عليه فقد كان أجود ما يكون في رمضان، حتى أنه كان فيه أجود من الريح المرسلة.. وما زكاة الفطر في آخر رمضان، إلا الحلقة



الختامية، والمظهر العلنى الجماعى لهذه الحركات النفسية الفردية، التى تحولت فيها فضيلة الصبر إلى فضيلة الشكر؛ اتباعًا لإرشاد القرآن الكريم حين يقول:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وأما انطلاق الروح فى رمضان من الباب الرباني، فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة، ورسم لها سبلا ذللا:

تسبيح وتحميد، تكبير وتمجيد:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾

(البقرة: ١٨٥).

تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾

(البقرة: ١٨٦).

«من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

وما الاعتكاف فى العشر الأواخر من رمضان، إلا نهاية الشوط فى هذا السير، إقبالاً على الله وانقطاعًا بالكلية إليه:

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.



﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾

(البقرة: ١٨٧).

ألا وإن ذروة الأمر وسنامه فى هذا الجانب الرباني، إنما هو فى مناجاة الله بكلامه، وفى مدارسة كتابه، كما كان يفعل الرسول المصطفى من البشر، والرسول المصطفى من الملائكة، إذ كانا يتدارسان القرآن فى رمضان فى كل عام ولأمر ما، نوه الله بهذه الصلة الوثيقة بين رمضان وبين القرآن، وجعلها أول المناقب والمزايا التى اختص بها هذا الشهر المعظم.. فقال جلت حكمته:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾

(البقرة: ١٨٥).

فكان ذلك إيماء لنا بأن نجعل لرمضان من القرآن أوفر الحظوظ.

وإذا كان من شأن الأمم الحية التى تعنى بتاريخها وأمجادها أن تبتهج وتحتفل بذكرى مولد دستورها، فلم يكن بدعًا من الأمر أن يجعل الإسلام شعار رمضان هو الاحتفال بمولد دستوره السماوي، الذى ختم الله به الشرائع وأتم به مكارم الأخلاق.

❊ ❊ ❊



المظهر الجماعى فى صوم رمضان

إن هــذا الضــرب مــن الصوم يمتــاز عن ســائر أنواع الصيــام فى الإِســلام، بأنه لا يخص فــردًا دون فرد، ولا فئة دون فئة، كشــأن النوافل والكفارات، وأنه لم يترك لأحــد الخيرة فى تحديد بدايتــه ونهايته، ولا فى جمعه وتفريقه متى شــاء وبقدر ما شــاء، ولكنــه جعل ضريبة الوفــاء علــى الأمة جمعاء، فى موســم معين مــن العام، وفى مقدار معين من الأيام، وفى وقت واحد، وفى نسق واحــد.

هــذا الطابع الاقترانى الشــامل، يكفى وحده للدليل علــى أن هــذه الفريضة الســامية لا يراد منهــا أن تكون مجرد رياضة روحية تصل بين العبد وربه فحســب، ولا مجرد تجربة إنســانية من التعاطف والتراحم فى حالات فرديــة متفرقــة، ولكنه يــراد منها أن تكــون فى الوقت نفسه حلقة اتصال بين الأمة كلها، وأن تكون رباطًا من الرحمة بين المؤمنين تصهرهم جميعًا فى قالب واحد، وفى جســد واحد.

علــى أن فريضــة الصوم ليســت فــى هذا بدعًــا بين فرائض الإِســلام الكبرى، وشــعائره العملية العظمى.. فكلهــا ـ لــو تأملنا ـ تتمثل فيها هــذه الطبيعة الثنائية: الروحيــة الجماعيــة.. حتــى أن الشــعائر ذات الطابــع



الروحـى البارزة، كالصلاة والحج، قد أمدتها الشـريعة بعناصـر، وأحاطتها بمظاهر، وقيدتها بشـرائط تجعل جانبهـا الاجتماعـى لا يقـل شـرفًا وخطرًا عـن جانبها الروحـي.

ونحـن حيـن ننظر إلـى فريضـة الصيام، نـرى فيها مظهـرًا مـن مظاهـر هـذا التماسـك، وهـذه الأخـوة، والمسـاواة الإسـلامية، إنهم يصومون معًـا، ويفطرون معًـا، دون امتيـاز لأحـد.

هذه كما ترى قواعد الإسلام ودعائمه الكبرى: جعل الله كل واحدة منها قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربـه، وطرف يربطـه بإخوانه المؤمنيـن، ثم جعل كل واحدة منها ينبوعًا لمحبتين، لا يكمل الإيمان إلا بهما مجتمعتيـن: المحبـة لله، والمحبـة فـى الله.

هكذا أراد الله أن يجعل من عبادتنا شعارًا لوحدتنا.. بل أراد أن يتحول هذا الشـعار شـعورًا، وأن يصبح هذا الشـعور نارًا ونـورًا: نارًا تفـرى قلوب الأعـداء، ونورًا يسـرى إلى قلوب الأولياء: تواصلاً وتراحمًا وتسـاندًا وتعاونًـا.. معان تتفتح أبوابها فـى كل عبادة جماعية، وهـى فى عبادة الصوم المشـترك أجلـى وأظهر، وذلك أن تجربة الصوم المشـترك زمالة فى الجهاد، ورفقة فى مكافحة الشـدائد، أرأيت الرفيقيـن فى الجهاد إذا كان



أحدهمـا ذا فضل وسـعة فى زاده وعتـاده، هل تطاوعه نفسـه أن يمسـك فضله عن زميلـه المتخلـف عنه فى الـزادأوالعتـاد؟

كذلـك تنصهـر القلـوب المؤمنـة كلهـا فـى بوتقة الصيـام، فتعـود قلبًـا واحدًا فى جسـد واحـد.. وهذا هـو المثل الأعلى فى وحدة الأمة التـى يؤهلنا لها صوم رمضـان.

❊ ❊ ❊



فى الحج

إن الكتلة العظيمة المعترضة فى صلب الخريطة من الغرب إلى الشرق، تعتبر وسطًا فى موقعها بين الشمال والجنوب، وسطًا فى جوها غالبًا بين البرد القارس والحر اللافح.. !

فى هذه الرقعة الوسط، وفى هذا الجو الوسط، تستوطن الشعوب الإسلامية التى جعلها الله أمة وسطًا: وسطًا فى عقيدتها متجافية عن طرفى الخرافة والجحود، وسطًا فى شريعتها، نائية عن طرفى الواقعية الجامدة القلب، والمثالية الذاهلة العقل، وسطًا فى مطامحها، بعيدة عن طرفى القناعة الذليلة، والحرص الجشع، وسطًا فى موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط سلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها.

هذه الأمة كما جعل الله لها من وضعها الجغرافى وحدة طبيعية جامعة، جعل لها من عقيدتها وشريعتها وحدة روحية جامعة.. وحدتان لو أثمرت كل منهما ثمرتها فى مجالها لكان من شأنهما تحقيق السعادة الكاملة للمجتمع الإسلامى: كان من شأن الوحدة الجغرافية أن تمحو من بين أقطار الإسلام تلك الحواجز الإقليمية فى شئون الاقتصاد والإنتاج، وأن تيسر توزيع ثروتها المادية بينها توزيعًا ينشر فيها الرفد والرخاء، ويحقق لها الاكتفاء الذاتى



والاستغناء عما سواها.. وكان من شأن الوحدة الروحية أن تتغلب على تلك الفوارق السطحية بين شعوب الإسلام فى ألسنتها وألوانها، وفى مذاهبها وعاداتها، وأن توحد أو تجانس بين مناهجها التثقيفية ومبادئها التشريعية، وأن توجه رؤوسها المفكرة إلى تبادل نتاجها العلمى والأدبى، ورؤوسها المدبرة إلى تنسيق خططها السياسية والاجتماعية، وأن توجه جيوشها إلى التكتل فى الدفاع عن كل شبر من أرضها، فكلما اشتكى من جسم الإسلام عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحماية والرعاية.

نعم.. لقد كان من شأن هذه الوحدة المزدوجة أن تجعل الأمم الإسلامية من أرغد الأمم عيشًا، وأعظمها قوة، وأتمها عزة.. فياليت شعرى ما الذى قعد بها عن بلوغ هذه الغاية العليا بعد أن وضعت المقادير فى يدها مفاتيحها المادية، وبعد أن وضع الإسلام فى يدها مفاتيحها الروحية؟

لقد كان المجال يكون فسيحًا فى الجواب عن هذا السؤال، وفى التماس العذر للمسلمين عن هذا القعود، لو كان الإسلام قد اكتفى بتقرير هذه الحقائق والمبادئ، إذ كان لهم أن يعتذروا بأنها حقائق نظرية لا يدركها إلا الأفذاذ، الذين تتسع آفاقهم حتى يستوعبوا خريطة العالم الإسلامى فى نظرة، ويستوعبوا عقيدة الإسلام وشريعته فى فكرة.. ثم كان لهم أن يعتذروا بأن إقامة هذه الوحدة



عبء جسيم، لا يسعى إلى حمله طائعًا مختارًا من بين هؤلاء الأفذاذ إلا عبقرى، يؤمن فى قرارة نفسه بأن له رسالة إصلاحية فى هذا العالم.. أما الجماهير والدهماء فإنهم لا يمتد نظر أحدهم إلى أبعد من قطره أو إقليمه، بل ربما لا يتجاوز خياله حدود قريته، أو نطاق حرفته.

فالرجل الذى لم ير فى حياته هنديًا ولا صينيًا، ولم يعرف روسيًا ولا تركيًا، ولم يعامل صوماليًا ولا سنغاليًا، كيف نطالبه بأن يفكر فى كل هؤلاء وأمثالهم، وأن يهتم بشئونهم وشئون أقوامهم؟

لا لقد أبطل الإسلام هذه الحجة، وأغلق الباب أمام هذا الاعتذار، إذ لم يكتف بتقرير هذه الحقائق النظرية، ولكنه وضع إلى جانبها نظامًا دقيقًا إلزاميًا، وهيأ لتحقيقها فرصة عملية سنوية يجمع بها العالم الإسلامى مركزًا فى بقعة.

أتدرى ما هذه البقعة؟ إنها المحور الذى تلتف حوله أقطار الإسلام على بعد متناسب من كل جانب، إنها القطب المغناطيسى الروحى الذى تنجذب إليه أفئدة المؤمنين من كل فج عميق، إنها الكعبة: البيت الحرام، ومكة: البلد الحرام، ومنى: معسكر الحرم، وعرفة: عتبة باب الحرم.. ذلكم هو مهد الإسلام فى طفولته، ومبعث نشاطه فى فتوته، جعل الله الورود إلى هذا المنهل الأول فريضة حتمًا على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً، ولو مرة



فى حياته . . فليس لأحد منهم إذًا أن ينطوى على نفسه فى قطره وإقليمه، وأن يقول : «إنى لم أرى فى حياتى مشرقيًا ولا مغربيًا» أنه يجب عليه دينًا أن يرحل ليرى ويسمع وليندمج فى هذه الكتلة الإسلامية الكبري، بل إننا لو فرضنا أن كل فرد أدى هذه الرحلة المفروضة، فإنه لا يباح لجماعة المسلمين أن يقطعوا هذه الشعيرة الموسمية، ولا مناص من أن تتجمع الوفود الإسلامية هناك، فى كل عام فى وقت واحد، فى صعيد واحد، بل فى زى واحد وأن ينشدوا جميعًا نشيدًا روحيًا واحدًا، تردده معم الجبال والأكمات، فتتجاوب أصداؤه فى قلوبهم، وتنصهر فيه نفوسهم حتى تعود سبيكة واحدة فى بوتقة الشعور المشترك، والوجدان الموحد.

تلك هى تجربة الوحدة الروحية، تكملها وتتوجها تجربة الوحدة الاجتماعية، ذلك أن الإسلام لم يجعل الحج عبادة وحسب ولكنه جعله فى الوقت نفسه قيامًا للناس، وموسمًا لتبادل مصالحهم، وفى مختلف وجوهها وأنواعها، بل إنه لأمر ما، جعل هذه قبل تلك فى معرض بيانه للغاية المنشودة من رحلة الحج . . ألا نسمع إلى قول الله جلت حكمته :

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾

(الحج : ٢٨)



إنه تطبيقًا لهذا المبدأ الحكيم كان من واجبات الحج بعد أداء مراسمه ، أن يخلع الناس ثياب عبادتهم المتقشفة ، وأن يمكثوا هناك فترة يعودون فيها إلى مجرى حياتهم العادية ، متكشفًا كل منهم عن زيه ومهنته ولهجته ، ليتعاملوا ويتشاوروا ويتعاونوا ، وهم فى أوضاعهم الطبيعية ، حتى تبرز بينهم صورة هذه الوحدة الإسلامية المختلفة المظهر ، المؤتلفة الجوهر .

هل فقه الناس إذًا مغزى هذه الشريعة ؟ وهل أدركوا أن تكرار هذه التجربة كل عام فى شكل مصغر ، إنما هو دعوة إلى تجربة أمثالها كل آن فى نطاق أوسع ، وعلى مقياس مكبر .

إن عامة المسلمين يفهمون من شعائر الحج أنها مادية روحية أعدها الله لعباده عند أول بيت وضعه للناس ، ليتزودوا فيها من أنواع القربات ، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات ، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها ، وشأن واجباته وتأديتها .

غير أن الإسلام أوسع أفقًا ، وأبعد نظرًا من أن تحدده هذه الأهداف الفردية الضيقة ، وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة فى أن نؤدى هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين فى أى وقت من العام يشاؤه الواحد منا ؟ ولماذا أمرنا لزامًا أن نؤديها مجتمعين فى صعيد واحد ، فى وقت واحد ، فى زى واحد ؟



لابد هناك من سر أو أسرار يهدف إليها التشريع الإسلامى من وراء هذا التجمع والتكتل.

أتدرون ما الأواصر التى ربط الله بها الأمة الإسلامية لتكون كالجسد الواحد؟ كلنا يعرف منها آصرتين اثنتين: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة: إله واحد وكتاب واحد.. آصرتان عقليتان معنويتان، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة، فبعث مناديا ينادى فى الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ليعبدوا هذا الإله الواحد، بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة هى أرض الوطن الروحى.. وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة فى وحدة الوطن الأعلى، ذلك ليذكر المسلمون أنهم ـ وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألسنتهم وألوانهم ـ تجمعهم جامعة الدين والله والوطن.. وإنه إذا جد الجد وجب أن يضحى كل فريق منهم بمصالحه الخاصة فى سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا.

إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامى ترينا كيف أنه يمتد فى قلب العالم كتلة واحدة متصلة، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وأنه كله يدور على محور واحد.. هو مكة المكرمة.. التى هى قلب الوطن الإسلامى وقطب رحاه.. إن هذا الوضع الجغرافى المتماسك القوى، قد اختص به



الإِسلام بين سائر الأديان.. ومع ذلك من أعجب العجب أن الذى ينظر إلى الماضى القريب للأمة الإِسلامية، لا يجدها فى المكانة التى يؤهلها لها هذا الموقع الفريد.. ذلك أن تفتتها الإِقليمى وانطواء كل شعب منها على نفسه، قد أنساها هذه الرابطة العظمى.

ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية.. فكان التجار والرحالون يتنقلون من قطر إلى قطر، وليس بيدهم جواز سفر.. إلا كلمة الإِسلام.

***

الجوانب الاجتماعية فى الحج:

هناك ظاهرة عجيبة من ظواهر التشريع الإِسلامى، تلك هى الطبيعة الثنائية، المادية الروحية، الإِنسانية الربانية، الفردية الاجتماعية، التى تسرى باطراد، فى شعائر الإِسلام، حتى أن كل قاعدة من قواعدها الأربع، تمثل قطبًا ذا طرفين: طرف يربط المؤمن بربه، وطرف يربطه بإِخوانه المؤمنين.. ظاهرة مطردة، كلما ازددنا فى دراستها أمعانا زادتنا إيمانا، بأن الذى فصل هذه الشريعة على مقياس الإِنسان، هو الذى فطر الإِنسان روحًا فى مادة، وفردًا فى جماعة.

هذه الطبيعة الثنائية، قد تكون جلية واضحة فى بعض الشعائر، دقيقة عميقة فى البعض الآخر، ولكنها فى شعيرة



الحج، أوضح وأجلى منها فى سائر المواطن.

ولا نريد أن نطيل فى وصف الجانب الروحى، من هذه المأدبة الكبرى، التى أعدها الله للمؤمنين، عند أول بيت وضعه للناس، فذلك الجانب الروحى منها، هو مثار الانبعاثة الأولى، فى قلب كل مؤمن يريد أن يلبى هذه الدعوة، إنه حين يتفرغ لها من مشاكله وشواغله ويفارق من أجلها أهله ووطنه، مضحيًا بماله ووقته وراحته، متجردًا حتى من ثيابه وزينته، محتملاً فى هذه السبيل كل وصب ونصب، إنه يرى فى ذلك كله مرضاة لربه، ومطهرة لذنبه، وبرهانًا على الإيمان، وزادًا من التقوى.

إن شعيرة الحج - فريضة كانت أو نافلة - قد حدد الإسلام لها أشهرًا معلومات، وعين لمناسكها أيامًا معدودات، بل جعل لبعضها ساعات محدودة من تلك الأيام المعدودة، بحيث لو فاتت فلا قضاء لهذا، بل قد يجب العود لها من عام قابل.. هكذا يجب أن يجتمع الناس على هذه المناسك، فى وقت واحد، وفى صعيد واحد، بل فى زى واحد، ثم يجب أن تتكرر هذه الشعيرة فى كل موسم، وأن تشهد أرض الحرم وما حولها هذه الوفود الإسلامية، مجتمعة فى ميقاتها من كل عام.

هذا العنصر الجمعى، هو إذًا ركن ركين، وعنصر أساسى أصيل، من دونه لا يكون الحج حجًا، ولا يقع فرضًا ولا



نفلاً وبعد حرص الإسلام على هذا التجمع فى الحج، حرصًا يفوق كل حرص، وجعله هو الحلقة الختامية العليا توج بها سلسلة التجمعات المحلية، التى دعا المسلمين إليها فى مختلف المناسبات.. دعا أهل الحلة أو الحى الصغير إلى التجمع فى أقرب المساجد خمس مرات كل يوم، ثم دعا أهل القرية أو الحى الكبير من المدينة إلى التجمع فى مسجدهم الجامع، مرة فى كل جمعة، ثم دعا أهل المدينة وضواحيها إلى التجمع فى فضائها أو فى أوسع مكان منها كل عام مرتين، لصلاة العيدين.. مراحل متصاعدة.. تنمو فيها روح الجماعة شيئًا فشيئًا، ويتضخم مظهرها رويدًا رويدًا، حتى تصل إلى هذا التجمع الإسلامى الكبير، مرة فى كل عام، حول أول بيت وضع للناس.

لقد كان مقدرًا للإسلام أن ينتشر نوره فى الآفاق، على مختلف الأقطار والأقاليم.. ولقد رأيناه بالفعل، يبسط جناحيه على الأرض يمينًا وشمالاً حتى أتى على نهايتها فى أقصى الشرق وفى أقصى الغرب، ثم رأيناه فى الاتجاه الرأسى يمد قطبيه ما شاء الله أن يمدهما فى الشمال وفى الجنوب.. ولأن كان قد توقف سيره بعض الشىء، فى هذا الامتداد الرأسى، لقد كان ذلك العارض وقتيًا، إذا وضعت أمامه عقبات وحواجز صناعية لو رفعت من طريقه، لأصبح ينتظم المعمورة من جميع أقطارها، ذلك أن الإسلام، فكرة



سائغة، وشريعة عادلة، ونظام جميل مثله كمثل الماء العذب المنهمر، لا يصادف أرضًا مطمئنة إلا غمرها وعمرها، أيًا كان جوها وأيًا كانت تربتها.. وهكذا انفتحت لدعوة الإسلام عقول الأمم وقلوبها، على تنائى أقطارها واختلاف ألسنتها وألوانها، ونظمها وعوائدها وموروثاتها.. فلو أن الإسلام رخص لكل أمة قبلت دعوته فى أن تبقى حيث هى محصورة فى نطاق حدودها، لا تدرى ما يجرى وراء تلك الحدود من نظم وآراء، أو أنها تسمع بها ولا تراها فتصدق ما يصل إليها من أخبارها إن صدقًا وإن كذبًا، لو أن الإسلام رخص بذلك، إذًا لأفسح الطريق أمام العقائد والعوائد المحلية القديمة وسائر المقومات الاجتماعية الخاصة بكل قطر، ولتركها تربو وتنمو، وتتبلور وتتجمد، حتى تكون عقيدة إلى جانب العقيدة، بل عقيدة فى قلب العقيدة، وإذًا لأصبحت الوحدة الإسلامية، وحدة اسمية نظرية، ولعادت شعوب الإسلام، جماعات متنافرة متناثرة، لا قدر الله.

كان من الضرورى إذًا لبقاء هذه الوحدة ودوامها بصورة عملية، أن يفرض على الشعوب الإسلامية، نظام من الاختلاط والامتزاج والتجاور والتزاور، من شأنه أن يحد من حدة التفاوت بينها، وأن يميل بمقوماتها الاجتماعية، إلى التماثل والتشابه، أو على الأقل، إلى التقارب والتناسق، إذ يكون هذا الاختلاط فرصة ممهدة لاقتباس ما هو حسن



جميل، وتهذيب ما هو شاذ متطرف، ويكون فى الوقت نفسه تدريبًا عمليًا على التسامح والاغضاء عن الفوارق الشكلية التى لا يخشى أن تحدث صدعًا فى كيان الجماعة العظمى.

ماذا عسى أن يكون هذا النظام؟

أنفرض على كل قطر، أن يوفد طائفة منه تجوب الأقطار كلها بين حين وآخر، للوقوف على سبر عقائدها وعوائدها وعلومها وآدابها وأسلوب عباداتها ومعاملاتها، وللسهر الدائب على التنسيق بينها وصيانتها من أن يكون الاختلاف فيها اختلاف تناكر وتنافر؟.. يا لها من ضريبة قاسية ومهمة شاقة عسيرة.. أليس من الخير واليسر، أن تجيء الوفود كلها إلى بلد واحد؟ أوليس من خير الخير، وأيسر اليسر أن يكون هذا البلد فى سرة الأرض، على بعد متناسب من كل أقطارها.. وأن يكون هذا البلد، هو البلد الآمن الذى يلجأ إليه المكروبون ويأمن فيه الخائفون، وأن يكون هذا البلد، هو البلد المحروم من ثمرات الأرض، الأحق بالبر والرفد، وهو البلد الذى للإسلام فيه رحم تتقاضانا برها وصلتها منذ أقدم العصور، منذ قال إبراهيم عليه السلام:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ



ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

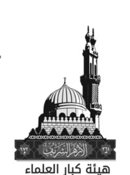
(إبراهيم: ٣٧)

أو ليس من تمام الحكمة، أن يكون هذا البلد، هو المكان الذى نزل فيه القرآن، والذى يتخاطب فيه الناس بلغة القرآن، ليكون فيه لغير العرب، إلف ما، بلغة العرب، التى ينبغى أن تكون من عناصر العالمية الإسلامية؟ وأخيرًا أليس الخير كله فى أن يكون هذا البلد، هو البلد الذى فيه قبلة المسلمين ومشاعر عبادتهم.. مطافهم ومسعاهم، وموقفهم ومرماهم، هكذا اختار الله للمسلمين أن يكون مجتمعهم السنوى، فى مكان يوفون فيه حق دينهم ودنياهم معًا، كما قال جلت حكمته:

﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾

(الحج: ٢٨)

﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ ما أعجب هذه الكلمة.. ما أوجزها وما أجمعها.. إنها لتتناول شئون الاقتصاد والسياسة، والحرب والقانون والعرف، واللغة، والآداب، والعلوم، وسائر مقومات الحياة الجماعية التى تتأثر أعظم التأثر، بهذا الاتصال والتلاقى، كما تتأثر السوائل بتلاقيها فى الأوانى المستطرقة فتأخذ فى التوازن والتعادل طلبًا



للوصول إلى مستوى واحد .

ولكن.. ولكن هل يظل المسلمون فى مواسم حجهم قانعين بهذا الموقف السلبى، الذى لا يعمل فيه إلا العقل الباطن البطىء الفاتر ؟ أليس يجب أن يتقدموا خطوة إيجابية، توضع فيها الخطط المفصلة لهذه الوحدة الإسلامية الشاملة؟ نعم : لقد آن للأمم الإسلامية أن تخرج من سجن هذه الفرديات المنعزلة، والقوميات المنفصلة، إلى محيط الجماعة الكبرى، التى يرون منها، نموذجًا مصغرًا فى هذه الرحلة المقدسة .

❊ ❊ ❊



في حياتنا الاجتماعية

المجتمع هو الأساس الأول الذى يقوم عليه بناء الدولة، وحين يكون متينًا قويًا، سيظل بناء الدولة إلى الأبد ثابتًا شامخًا لا تزلزله العواصف، ولا تصيبه القلاقل بالتصدع والانهيار، والأفراد هم اللبنات لهذا الأساس، فمتى كانت هذه اللبنات سليمة، ظل المجتمع إلى الأبد أيضًا متينًا قويًا.

فالعناية بالفرد أولا، لأنه لبنة فى بناء المجتمع، ثم العناية ثانيًا بالمجتمع فى مجموعة أفراده، وبذلك تتيسر للشعب الدولة الناهضة النابضة بالحركة وبالحياة.

وللناس فى ظل المجتمع مناهج فى سلوكهم، وسبل فى حياتهم تختلف هذه المناهج وتلك السبل باختلاف الأفراد، تبعًا لاستعدادهم النفسى والخلقى والثقافي، وهى إما تتخبط فى الحضيض، وإما تتهادى فى القمة، وإما أن تسير وسطًا، ليست فى الحضيض، وليست فى القمة أيضًا.

والأخلاق هى المقياس، والمضطلعون بتقويم المجتمع، إذا حاولوا أن ينتقلوا بمنهج الحضيض، وبالمنهج الوسط أيضًا إلى القمة، يجب أن يبدأوا بالأخلاق أولاً، لأنها أول الخيط الذى يصل بهم إلى الغاية.

على أن المجتمع فى حاجة قبل ذلك، إلى وعى جماعى لا يمالئ ولا يحابى ولا يجبن ولا يتقهقر، يتعقب المتمردين على المجتمع، ويضيق عليهم السبل حتى يعودوا إلى رشدهم،



ويثوبوا إلى صوابهم. وللإسـلام فلسفة فى إصلاح المجتمع وتقويمه، فهو يسـلك فى هذا الصدد مسـلكا ذا اتجاهين، الاتجـاه الإيجابـى، والاتجـاه السـلبى، فهو يقيـم الاتجاه الأول علـى قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى إطار فردى وجماعى، والتدخل للإصلاح بين المتنازعين:

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾
(لقمان: ١٧)

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾
(آل عمران: ١١٠)

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾
(الحجرات: ٩)

ويقيم الاتجاه الآخر السلبى، على قاعدة المقاطعة، وفى القـرآن مثل واضح للثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فى غزوة تبوك، وكان أن أمر رسـول الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، ونفذت المقاطعة الشاملة إلى أن تاب الله عليهم.

لـو أن المجتمع قامت فيه هاتان القاعدتان اللتان يرتكز عليهـا الإصـلاح الإيجابى، والإصلاح السـلبى، لأمكنه أن يعيش عيشة يسودها الأمن.. وتغمرها الرفاهية والسلام.



مناهج الناس فى السلوك

الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم أصناف ثلاثة، لا زائد عليها:

١- هذا صنف من الناس، لا يفعل الخير ولكنه يحب أن يحمد به، ويقترف الإثم ثم يرمى به من هو برىء منه، إذا كان عليه الحق ضجر به وإذا كان له الحق، ألح فى طلبه، ولم يقبل فى ذلك معذرة، ولا نظرة إلى ميسرة، أولئك قوم قد أهمتهم أنفسهم وعموا وصموا عن حق من حولهم، إذا نالهم أذى جاوزوا الحق فى عقوبته، فكافأوا السر بالعلانية، والنصيحة بالتشنيع والفضيحة.

هذا الصنف من الناس، إن لم يكن هو أكثر الناس ففى أكثر الناس نزعة من نزعته، لا أقول إنها نزعة الأثرة فحسب: بل نزعة البغى والجشع، تلك خلة قوم وصفهم الله بأنهم أحرص الناس على حياة، على حياة أى حياة كانت، ولو حياة الذلة والمهانة، أو حياة الوحشية والتخلى عن كل عاطفة إنسانية.

هذا الصنف من الناس شعاره فى الحياة: كن كلاعب الشطرنج، خذ ولا تعط، فإن لم تستطع فخذ أكثر مما تعطى.

٢- وصنف ثان من الناس، قليل ما هم، لا يضنون بالحق الذى عليهم، بل يسارعون إلى أدائه، ولكنهم يحرصون



فى الوقت نفسه على الحق الذى لهم، ولا يتهاونون فى اقتضائه، لا يبدأون أحدًا بظلم ولا عدوان، ولكنهم إن ظلموا انتصفوا ممن ظلمهم، وحرموا من حرمهم، لا ينامون على ثأر، ولا يكفون عن المطالبة بحق، فإذا أدى إليهم لم يجاوزوه مثقال ذرة، وإذا شفوا صدورهم واقتضوا لحرماتهم، لم يبالغوا فى العقوبة، ولم يسرفوا فى التشفى.

وهؤلاء شعارهم فى الحياة: خذ بقدر ما تعطى:

﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾

(البقرة:٢٧٩)

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾

(البقرة: ١٩٤)

٣- وصنف ثالث، هم أقل القليل، يتجاوزون العدل إلى الفضل، لا يظلمون أحدًا، بل يعفون عمن ظلمهم، ولا يبخسون أحدًا حقه، بل يسمحون له ببعض حقوقهم، فإذا كان لهم دين على معسر لم يكتفوا بإنظاره إلى الميسرة، بل تجاوزوا له عنه تجاوزًا كريمًا، وأعطوه إياه عطاء غير ممنون.

وهؤلاء شعارهم فى الحياة: أعط ولا تأخذ، فإن لم تستطع فأعط من نفسك أكثر مما تأخذ.

تلك أصناف الناس، وتلك منازعهم ومبادئهم التى



يصدرون عنها فى الحياة.

منازع ثلاثة، لو كان لنا أن نرمز لكل واحد منها برمز حسابى، لوضعنا على أولها علامة النقص، وعلى الثانى علامة المساواة، وعلى الثالث علامة الزيادة.

ما قيمة هذه المناهج والمبادئ فى نظر الإسلام؟

لنضرب الذكر صفحًا عن الخطة الخاسرة، والتجارة البائرة: خطة النقص والبخس، إنها ليست ممقوتة فى الإسلام وحده، ولكنها مذمومة بكل لسان، فى حكمة الحكماء، وفى شرعة السماء فى التوراة والإنجيل والفرقان.

ولننظر فيما بين المبدأين الأخيرين: مبدأ العدالة الحازمة، ومبدأ العفو والإحسان.

وقبل أن نعرض نظرة القرآن الحكيم إلى هذين المبدأين، نحب أن نعرف على وجه الإجمال مكانتهما فى الكتب السماوية السابقة:

إن هذين المبدأين قد اقتسمتهما شريعتان من شرائع السماء، أخذت كل واحدة منهما بطرف: فشريعة التوراة فى زعمهم هى شريعة العدل الذى لا هوادة فيه، والقصاص الذى لا عفو معه، وشريعة الإنجيل فى نظرهم هى شريعة الإحسان الذى لا يعرف مشاحنة ولا محاسبة، والعفو الذى لا تنقصه عقوبة ولا مخاصمة.

هكذا وضعوا بين دستور الأخلاق فى هاتين الشريعتين



حواجز حديدية، تجعلهما لا يتصافحان ولا يلتقيان، فهل حق هذا الخصام؟

لنقرأ الكتاب الذى أنزله الله مصدقًا لما بين يديه من الكتب، حارسًا لما فيها من حقائق، حفيظًا عليها أن تغير أو تبدل.

لنقرأ القرآن الكريم، لنعرف مدى ما فى هذه الأقوال من تحر للصدق أو نقص عنه أو تزيد فيه، فماذا نجد؟

نجده يحدثنا عن الشريعة الموسوية بأنها حقًا كان فيها بعض الإصر والمشقة، وأنها أخذت أتباعها بشىء من الحزم والشدة، وأنها شرعت لهم قانون القصاص بأدق ما فيه من معنى المساواة، بين الجناية وعقوبتها، ولكننا نجد إلى جانب ذلك نصًا صريحًا من التوراة المقدسة، يرغب المجنى عليه فى التنازل عن حقه، والعفو للجانى عن جنايته، هذا حين كتب الله على بنى إسرائيل فى التوراة أن النفس بالنفس، وأن الجروح قصاص، قال لهم بعد ذلك:

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾

(المائدة: ٤٥)

وكذلك يحدثنا عن الشريعة العيسوية، بأن الله أودع فى قلوب أتباعها رأفة ورحمة ولكنها لم تخل مع ذلك من دعوة إلى الجهاد، وإلى التكتل فى نصرة الحق:



﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾

(الصف : ١٤)

ولما سجل القرآن بيعة الإيمان :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

(التوبة : ١١١)

عقب على ذلك بقوله :

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾

(التوبة : ١١١)

لم يكن بين الشريعتين إذًا هذا الانفصال الكلى الذى صوروه لنا فى دستور الحياة ولكننا مع ذلك لا ننكر أن طابع الحزم والشدة كان على الموسوية أغلب ، وأن طابع الرفق والعفو كان فى المسيحية أظهر وأبرز ، وأن الطابع الآخر كان مغمورًا مكنوزًا بالطرف المقابل له .

والآن ما موقف القرآن من هذين المبدأين ؟

لقد نظرنا مليًا إلى مناهج الناس ومشاربهم فى سلوكهم ، فوجدناهم يصدرون فى معاملاتهم عن إحدى نزعات ثلاث : إما نزعة الاستئثار ، وإما نزعة الإيثار ، وإما نزعة المبادلة والمعادلة .



ولعلــه من نافلة القــول أن نفيض فى بيــان حكم القرآن على الســجية الغالبة، سجية الأثرة والبغى والعلو، فالقرآن مشحون بذمها ومقتها والنعى عليها.

بحســب هؤلاء المســرفين فى حب أنفســهم أن مقتهم مركوز فى كل ضمير، وأن ذمهم منشور على كل لسان.

فــإذا جاوزنا نطاق هــذه الخطة المذمومة ويممنا شــطر المبدأيــن الآخرين: مبدأ المحاســبة على قانون المســاواة والعدل، ومبدأ المكارمة والمســامحة والفضل، فقد يلوح لنــا فى بادئ الــرأى أننا نتجه بذلك نحو مبدأين ســاميين، وقــد نظن أن التفــاوت بينهما فى نظر القــرآن لن يكون إلا تفاوتًــا فــى مراتب النبل والســمو، بينما يجمعهما شــعار الفضيلة، وينتظمهما شرف الحمد والثناء.

فهل يصدق هذا الظن؟

هل إذا نظرنا إلى هذين المبدأين فى نظر القرآن الحكيم نراهمــا معروضيــن فــى معرض الفضائــل المأمــور بها، أو المرغــب فيهــا، أو المثنى عليها، وهل نجــد التفاوت بين مكانهمــا فى معرض الأخــلاق القرآنية ليــس إلا تفاوتًا فى مقدار الحث والترغيب ومبلغ الحمد والثناء؟

إن القرآن حيــن وزع القيم الأخلاقية على هذه المبادئ، لم يجعل القسمة بينها قســمة ثنائية، ولكنه جعلها قسمة ثلاثية، لها طرفان وواســطة، جعل مــن بينها فضيلة واحدة



رفعهـا إلى الطرف الأعلى، تلك هـى فضيلة الإيثار، وجعل من بينها رذيلة واحدة، وضعها فى الطرف الأدنى، تلك هى رذيلة الاستئثار.

أما الواسطة بين الطرفين وهى مبدأ المقاصة الدقيقة فى الحقوق والواجبات، وتحرى المساواة بينها - تلك القاعدة التى كانت الحكمـة اليونانية تعدها أم الفضائل، فإنها فى نظر القرآن ليسـت فضيلة ولا رذيلة، إنها لا تسـتحق عنده مدحًـا ولا ذمًـا، وإنمـا هى رخصـة مباحة لا ثـواب لها ولا عقاب عليها.

مـن كان فى شـك مـن ذلك كلـه فليقرأ قـول الله جلت حكمته:

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾

(الشورى: ٤١-٤٣)

هكذا دمغ رذيلة الظلم والبغى فجعلها مناط الذم واللوم، ومجلبة العقاب الأليم، ثم أشـاد بفضيلة الصبر والمغفرة، فجعلها من عزم الأمور، وكتب على نفسه أنه سيدخر الأجر لصاحبها حيث قال:



﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾

(الشورى: ٤٠)

أمـا المقاصة فى الانتصاف مـن الظلم فإنه لم يتبعها ذمًا ولا ثناء، ولم يرتب عليها ثوابًا ولا عقابًا، وكان كل حكمه فيها أنه رفع الحرج واللوم عن صاحبها فقال:

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

(الشورى: ٤١)

هذه القسمة الثلاثية نجدها فى مواضع كثيرة من القرآن الحكيم:

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾

(النساء: ١٤٨)

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾

(النساء: ١٤٩)

نهـى النـاس بـادئ ذى بـدء أن يغلـظ بعضهـم لبعـض بالفاحش من القول، فهذه هى الخطة المذمومة، خطة البدء بالإساءة.

وقـد بيـن أنهـا تسـتوجب غضـب الله، ثم اسـتثنى من اسـتحقاق هـذا الغضب مـن كانـت إسـاءته ردًا لمظلمة، فأخرجـه من عـداد المغضوب عليهم، ولكنـه لم يثن عليه



ولم يرغبه فى هذا الانتصاف، ثم ختم ببيان الخطة الحميدة والفضيلة المندوب إليها، وهى خطة العفو عن الإساءة، فأشار إلى أن من عفا عن سوء فقد تخلق بأخلاق الله، أليس الله يعفو ويعفو، ثم يعفو ويعفو، حتى كان اسمه العفو، وهو مع ذلك قدير على الانتقام، ثم ألا يذكر الذى أسىء إليه أنه هو نفسه ليس بريئًا من الذنب، ولا معصومًا من السيئات، فإن كان يحب أن يغفر الله له فليغفر هو لأخيه.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(النور: ٢٢)

بين العدل والفضل

لقد قلبنا النظر فى جوانب كثيرة من إرشادات القرآن الحكيم، سواء فى نطاق المعاملات المالية، أو فى دائرة الشئون الاجتماعية، أو فى معرض الأحداث الجنائية، فوجدناه فى كل ذلك ينهى عن التزيد فى حق النفس، ويحض على الزيادة فى حق الغير، أما المعاملة بالمثل فلا نجد فيها نهيًا عنها ولا تحريضًا عليها، وإنما نجد إذنًا وتخييرًا ورفعًا للحرج، لا زائد على ذلك.

هكذا نظرنا فى القرآن حين يتحدث فى شأن المعاملة المالية فوجدناه من جهة ينهى عن أخذ الربا، وعن أكل أموال الناس بالباطل، ومن الجهة الأخرى يأمر الدائن بإنذار مدينه المعسر ويندبه إلى التصدق عليه بدينه، أما



المحاسبة على السواء فلا يذكرها القرآن قادحًا ولا مادحًا، ولكن مقررًا لوضعها القانونى المباح:

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٩)

ثــم نظرنــا فى القــرآن حين يتنــاول أســاليب المخالطة والمعاشــرة فوجدناه مــن جهة ينهى عــن الفحش والأذى، والخشونة والغلظة ومن جهة أخرى يأمر بالعفو عن الأذى، والإعراض عن اللغو ويثنى الثناء المكرر على مقابلة الإساءة بالإحســان، أو بالتى هى أحسن، أما مقابلة السيئة بالسيئة فيتركها حقًا سائغًا لمن حرص عليها غير باغ ولا عاد.

ثم نظرنا فى القرآن حين عرض لجريمة الإفك والقذف، فوجدنــاه ينهانــا أن نعامل القاذف بقطع مــا بيننا وبينه من رحــم، أو يمنع ما يســتحقه لدينا من بــر وصلة، ويحرضنا أشــد التحريض على أن نشــمله بكريم الصفــح والمغفرة، التماسًا لعفو الله ولمغفرته.

فــإذا اســتقصينا هــذه المثــل وأشــباهها، فــإن المنطق يتقاضانا أن نســتخلص منهــا هذه القضيــة الكلية وهى أن المعاملــة الفاضلــة فى نظر القــرآن إنما هــى المعاملة التى تقوم على العفــو والإيثار والفضل، وأن الرذيلة إنما هى فى الطرف الأقصى، تقوم على الجور والاســتئثار والبخس، أما



الخطة التى بين بين، وهى المعاملة بالمساواة والمعادلة الدقيقة، فإنها إذا وزنت فى معايير الحكمة القرآنية، لم تستحق أن تسمى فضيلة ولا رذيلة، وإنما هى رخصة لا يتوجه إليها أمر ولا نهي، ولا يناط بها مدح ولا ذم، ولا يستحق صاحبها ثوابًا ولا عقابًا.

لكن الإشكال البارز فى هذه النظرية، أنها فى بادئ الرأى تصادم المعقول والمنقول: أما المعقول فهو ما تقرر فى الفطرة السليمة أن العدل فضيلة، هو أس الفضائل، وأما المنقول فالقرآن الكريم نفسه كثيرًا ما يشيد بمبدأ العدل والمساواة:

﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾

(النساء: ١٣٥)

﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

(المائدة: ٨)

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(الحجرات: ٩)

فلننظر الآن فى حل هذه المشكلة، وفى إزالة هذا التعارض.

إن مفتاح المسألة فى نظرنا هو الفصل التام بين مقامين: مقام الحكم ومقام المعاملة: فمقام الحكم هو مجال العدل



الدقيق الصارم، ومقام المعاملة هو مجال العفو والمسامحة، والمكارمة والمجاملة.

فالقاضي حين يفصل بين الخصمين، والوالد حين يوزع بره بين أولاده، والمربى والمعلم، والوصى والقيم، وكل راع فى رعيته، ليس له أن يحابى، أو يجامل أو يؤثر أو يفضل، إذ كيف يوثر بشىء غيره؟ وكيف يتفضل بما ليس من حقه؟

أتتملكه عاطفة الإحسان على البائس الفقير، فيجامله فى الحكم؟ كلا.

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾

(النساء: ١٣٥)

أتدفعه سورة الغضب على العدو فيضاعف عليه الغرم؟ كلا.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾

(المائدة: ٨)

أتحمله صلة القرابة أو النسب، أو عصبية الإقليم أو المذهب على التحيز لإخوانه فيها، ظالمين.. أو مظلومين؟ كلا.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن



﴿ فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(الحجرات: ٩)

أيحز فى نفسه منظر العقوبة، أيزعجه صوت الشكاية، فيعفو عن الجريمة بعد أن ذاع صيتها، ورفع إليه أمرها؟ كلا.

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾

(النور: ٢)

أيترك دولة الإسلام نهبًا لأعدائها، أو يقطعهم شبرًا من أرضها، أو يمنحهم حق التحكم فى رقبة من رقاب أهلها؟

كلا.. إن أرض الإسلام وحقوق المسلمين ليست ملكًا لفرد ولا لجماعة، وليست حقًا لأمة ولا لجيل من الأمم، إنما هى حق الأجيال كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فالتسامح فيها تصرف فى حق الغير، والضن بها والدفاع عنها ليسا مشاحة(٢) فى حظ النفس وإنما هو غضب لحرمة الله والوطن.

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾

(البقرة: ١٩٠)

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾

(النساء: ٧٥)

---

(٢) المشاحة: الضنة والبخل والحرص.



هكذا نرى أن المجال الذى يكون فيه العدل فضيلة محمودة، بل فريضة مكتوبة، هو المجال الذى تكون أنت فيه طرفًا ثالثًا، وسطًا بين طرفين، فيكون واجبك أن توفى كلا منهما حقه غير منقوص ولا مزيد، وكل شىء من المكارمة والإيثار هنا هو الجور بعينه، هذا ما نسميه مقام الحكم والفصل بين الناس، ونحن إذا تأملنا أكثر النصوص القرآنية التى وردت فى مدح العدل والأمر به وجدناها صريحة فى هذا الباب:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾

(ص: ٢٦)

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾

(المائدة: ٤٢)

أما حيث أنت أحد الطرفين، تتصرف فى شيئك، وتساوم فى حقك، فهذا ما نسميه مقام المعاملة، وهذا هو المجال الذى تتوجه فيه دعوة القرآن إلى العفو والمسامحة، وإلى الإيثار والمجاملة، وهو المجال الذى يخرج فيه مبدأ العدل والمساواة من نطاق الفضائل والرذائل جميعها، إذ يهبط من مستوى الواجبات إلى مستوى الرخص والمباحات.. وتبقى الفضيلة للفضل وحده.



الحلقة المفقودة

إننـا نفهـم الحرية الفرديـة فهمًا سـيئًا متطرفًا ، ونفهم المسـئولية الاجتماعيـة فهمًا ناقصًا محرفًـا ، الدولة عندنا هـى المسـئولة عـن كل شـىء ، هى التـى يجـب عليها أن تتعقـب المذنبين وأن تتولى عقوبتهـم ، فإذا لم يصل إليها نبأ الجريمة ، أو لم تصل هى إلى كشـف معالمها ، أو كانت ممـا لا يعاقـب عليـه القانون ، تركنـا نحن أيضًـا صاحبها آمنًا مطمئنًـا ، يلاقى الترحيب والتكريـم الذى كان يلاقيه من قبل ، وتركنا كل فرد يسـير سـيرته الأولى غير شـاعر بمسـئوليته عن سلوك الآخرين ، ولا حسب حسابًا لموقف الآخريـن من سـلوكه ، عقد منفرط لا ينظمه سـلك واحد ، وجسم مفكك لا يهيمن عليه روح واحدة .

أتـدرون ما هـذه الـروح الواحـد ، التى يجب أن تسـود وتهيمـن على المجتمع ، ؟ إنه الوعى العام الغيور المتيقظ ، الحارس للقيمة المعنوية فى الجماعة .

إن ها هنا سـر الشـفاء وحقيقة الدواء ، أمـا ما وراء ذلك من دعوة الداعين ، وإرشـاد المرشـدين ، فليـس فى جملته إلا تلطيفًـا وتسـكينًا وقتيًـا لبعض جوانـب المرض ، ذلك أن الذيـن تتفتح أسـماعهم وقلوبهم لهذا الإرشـاد إنما هم الصالحـون الخيرون ، وقليـل ما هم ، وإن الذيـن تنطبع به مشـاعرهم وتتحرك بـه عزائمهم ، من بين هـؤلاء القليل ،



هم أقل القليل، أما السواد الأعظم من المستمعين فإنهم متى انصرفوا إلى شئون الحياة فى البيت أو فى الطريق، فى المدرسة أو فى الديوان، فى الأندية أو فى الأسواق، فى المصانع أو فى المزارع، فإنهم سرعان ما ينسون، لأنهم لا يجدون فى بيئة منها وازعًا ولا نازعًا[3] ولا مذكرًا ولا محذرًا، بل يجدون فيها من ضروب الإهمال والتهاون، ما قد يغريهم بالعبث أو الإجرام، هكذا تهدم الجماعة فى ساعة واحدة ما تعبت فى بنائه أيدى القادة والمصلحين، وهكذا تكون الجماعة هى التى تمهد السبيل لأبنائها أن يقفوا مواقف الإثم والبغى، وهى التى تقودهم فى النهاية إلى أسوأ العواقب وأشد العقوبات.

نحن إذن فى حاجة ملحة إلى إيقاظ هذا الضمير الاجتماعى فى الأمة، لا عن طريق الدعوة المُوعظَة فحسب، بل عن طريق عملى جدى، نحن بحاجة إلى تكوين رأى عام أخلاقى، له نفوذه واحترامه فى نفوس كل الأفراد، بحيث يشعر كل امرئ أن إساءته - دقت أو جلت - ستلاقى جوابًا سريعًا علنيًا فى سلوك المجموع بإزائه، إننا نريد أن يشعر كل باغ على حق غيره، وكل خائن لأمانته، وكل مضيع لواجبه، وكل خارج على الآداب فى صورة من الصور..

(٣) وازعًا: مانعا أو كافا. نازعًا: مقتلعا لهم من تلك البيئة



نريد أن يشعر بأنه قبل أن يؤاخذه القضاء، وقبل أن يواجهه التحقيق، ستصوب نحوه جهارًا سهام النقد والذم، وسيذوب وجهه خجلاً، تحت نظرات السخط والمقت، وسيحرم من عطف المجتمع ومعونته، وأنه لن يبسم فى وجهه أحد، ولن يبادله التحية أحد، وأنه سيعيش مهجورًا منبوذًا حتى يراجع نفسه ويعدل من سيرته.

هل أتاكم نبأ الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين خرج هو وأصحابه إلى الجهاد، فى سفر شاق طويل، وفى إبان القيظ الشديد؟ فلما عاد من السفر، وسألهم عن سبب تخلفهم، صدقوه الخبر، واعترفوا له بأنهم لم يكن بهم مرض ولا عوز، وكان كل ذنبهم أنهم طال بهم التجهيز للرحيل، حتى فاتتهم القافلة.

أتدرون ماذا فعل القائد الحكيم؟! أمر الناس.. فاجتنبهم الناس اجتنابًا، بل اعتزلهم أهلهم ونساؤهم، ولبثوا على ذلك خمسين يومًا وليلة، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، ثم تاب الله عليهم بعد أن انصهرت قلوبهم بهذه المقاطعة الشاملة، التى كانت أنكى فيهم من حد السيف.

لقد نهى الناس عن كلامهم، حتى يقضى الله فى شأنهم، وهذا هو طراز التربية الناجعة، الذى نريد أن نترسم منهاجه، وتلك هى الحلقة المفقودة، التى لو وضعناها فى مكانها



من جهاز حياتنا العامة، لاستراح الحاكم والمحكوم وكاد لا يبقى بيننا ظالم ولا مظلوم.

إن مفتاح الحل بين المجتمع نفسه، هو أن يحاول أفراده أن يكونوا يدًا واحدة فى الصراحة بالحق، يبدأون ببذل النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه، فيذكرونه كلما نسى، وينهونه كلما غفل.. حتى إذا عاود وعاند، أشعروه بإعراضهم، وحرموه بشاشة وجوههم حتى يفىء إلى أمر الله.

إن هذه المقاومة السلبية الأدبية، هى معنى تغيير المنكر بالقلب، لمن عجز عن تغييره باليد واللسان، هى التى صدر فيها النطق النبوى الحكيم بأنها هى أضعف درجات الإيمان.

فإنكم إن قمتم اليوم بوضع حجرها الأساسى أيها المسلمون فتحتم فتحًا مبينًا فى تدعيم نهضة المجتمع، والتعجيل بإنضاج ثمراتها المباركة.

***



بين المثالية والواقعية

يمتاز التشريع الإسلامى بأنه تشريع وسط يقوم على أساس من الاعتدال ؛ الاعتدال فى كل شىء.

فى التعبد، بحيث لا يتطرف المسلم ولا يتحلل :

«إن الدين متين فأوغل فيه برفق...»(٤)

وفى الحياة المعيشية، بحيث لا يسرف ولا يبخل :

﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ (الإسراء : ٢٩)

وفى الأكل والشرب، بحيث لا يبالغ الإنسان فيهما مبالغة تصيبه بالتخمة التى تنشأ الأمراض عنها، ولا يقتصد اقتصادًا يلحق به الضعف والهزال.

فى كل شئون الحياة يتطلب الإسلام الاعتدال، ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذى قام عليه بناء الأمة الإسلامية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة : ١٤٣)

هكذا يقف الإسلام دينًا وسطًا..

لا يجنح إلى المثالية الخيالية، لأنها أشبه ما تكون بضرب من ضروب المحال، ولأنها تكليف للنفس فوق طاقتها، وضد غرائزها وطبائعها.

كما لا يميل إلى الواقعية المتزمتة، لأن فيها عزوفًا عن المثل العليا.

(٤) من حديث رواه أحمد بن حنبل ١٩٩/٣.



ولأنها تطبع النفس بطابع التزمت الممجوج..

وإنما يقف وسطًا، فهو يأخذ من المثالية، ما تستوعبه من المثل العليا: ويأخذ من الواقعية، ما تتضمنه من حزم وعدل وعزم.

إن النفس البشرية جبلت على نزعتى الرضا والغضب، وطبعت على غريزتى الحب والكراهية، والعفو والقصاص، والمثالية تأبى إلا أن تطبع النفس- فحسب- بطابع الرضا والحب والعفو، وهذه هى المثالية الخيالية التى لا طاقة للنفس البشرية بها.

فإذا كنا نرضى فى كل حال، فلابد أن نتخلى عن الرجولة والنخوة، وقد كان الرسول- صلوات الله عليه - يغضب إذا انتهكت محارم الله.

وإذا كنا نحب فى كل حال، فلابد أن نغض الطرف عن كل ما هو بغيض، وبذلك لا تظهر قيمة الحب، وقد كان رسول الله، يحب ويبغض فى الله..

وإذا كنا نعفو فى كل حال، فلا بد أن نتخلى عن القوة والشجاعة، ونضرب صفحًا عن قاعدة القصاص، وهذا كتاب الله يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: ١٧٩)

إن الإسلام يرغب فى الواقعية الحازمة تطبيقًا لمبدأ العدل، كما يرغب فى المثالية المعتدلة، تطبيقًا لمبدأ الإحسان، وهذا ما عناه القرآن حين قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ (النحل: ٩٠)



مع آداب القرآن

تصافح وتسامح، تواضع وتنازل، تسابق إلى الفضل والإيثار، قبول للقليل، وبذل للكثير... ذلك هو معنى الإحسان، وذلك هو أدب المعاملة فى القرآن. شرعه الله للخلطاء والعشراء القرناء والعملاء، وجعله بينهم هو الفضيلة الوحيدة، التى تستحق حمده وثناءه، وتستوجب عنده جميل جزائه..

غير أن هذه الفضيلة العملية الاجتماعية، على عظم قيمتها، وجزالة نفعها، سوف تبقى عملا سطحيا، وعرضًا وقتيًا، لا ثبات له ولا استقرار، بل سوف تكون أقرب إلى الرياء منها إلى العمل الفاضل، ما لم تصدر طوعًا واختيارًا عن نفس راضية مطمئنة، غير كارهة ولا مكرهة. ألم يأتك نبأ قوم لم يتقبل الله منهم نفقاتهم، بل قال لهم:

﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾

(التوبة: ٥٣)

ثم بَّين الأسباب التى منعتهم أن تقبل منهم نفقاتهم وكان من تلك الأسباب أنهم كانوا:

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾

(التوبة: ٥٤)

فلكى تكون هذه الفضيلة الاجتماعية: فضيلة حقيقية،



لا بد إذا أن تستند إلى فضيلة نفسية فردية، مركوزة فى نفس العامل، مغروسة فى قرارة قلبه.. تلك هى فضيلة الطهر وسلامة الصدر، فضيلة الصفاء والنقاء الذى لا يشوبه غل ولا دخل، ولا حقد ولا حسد...

فضيلة المحبة الشاملة، والرحمة السابغة، التى تضم تحت جناحيها أصناف الخلق كلهم، قريبهم وبعيدهم، عالمهم وجاهلهم برهم وفاجرهم، بل أقول مؤمنهم وكافرهم.

رحمة تقتبس من رحمة الله الذى وسعت رحمته كل شيء وشملت الكافر والمؤمن على السواء، وتتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، وتهتدى بهدى أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان.

رحمة تتخذ أسوتها فى خلق رسول الله، الذى كان مضرب المثل فى شفقته على أعدائه، وحرصه على خيرهم، وخشيته من نزول العذاب عليهم. حتى كان يدعو لهم إذا آذوه، ويستغفر لهم إذا كذبوه، بل كان يبكى إذا سمع قارئًا يقرأ قول الله:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

(النساء: ٤١)



لا أحدثك فى هذا عن إحسانه إلى فقيرهم، وعيادته لمريضهم، وصلته لجيرانه منهم، وسائر أنواع بره ومواساته لهم، فتلك فضيلة اجتماعية مفروغ منها، ولسنا بصدد إثباتها وإنما أحدثك عن منبع هذه الفضيلة فى نفسه الشريفة، ومدى تمكن أصلها فى قلبه الكريم.. أحدثك عن هذا القلب الشفيق الرقيق، السخى الودود، هذا القلب الإنسانى العالمى، الذى استحق به شهادة الله له فى كتابه حين يقول:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾

(التوبة: ١٢٨)

فانظر كيف شهد له بالشفقة على الجميع. وإن كان للمؤمنين من رأفته ورحمته النصيب الأكبر، والحظ الأوفر:

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

(التوبة: ١٢٨)

وكما شهد القرآن للرسول صلوات الله عليه بهذه الرحمة الإنسانية، شهد بها للمؤمنين الأولين، شهد لهم بأنهم يحبون أعداءهم وإن كان أعداؤهم لا يحبونهم. ألم تسمع إلى قول الله تبارك وتعالى:



﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾

(آل عمران: ١١٩)

لا تظن أن هذا أسلوب لوم وعتاب للمؤمنين على محبة من لا يحبهم، لا يستقيم فى نسق الآية الكريمة:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾

(آل عمران: ١١٩)

أفتراه يلومنا كذلك على الإيمان بكتابهم ما داموا لا يؤمنون بكتابنا إلا رياء ونفاقا؟ كلا إن علينا أن نؤمن بالكتاب كله آمن الناس أم لم يؤمنوا، وإنما الذنب على من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فكذلك لا لوم علينا فى محبتهم.

إنما اللوم عليهم إذ لم يبادلونا حبًا بحب.. هكذا تتجه الآية الحكيمة اتجاهًا واحدًا وتسير فى نظام متناسق، غير ممزق ولا متعاكس، إذ تجعل محط استنكارها فى كلا شطريها آخر جزء من الكلام. على منهاج قوله تعالي:

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾

(البقرة: ٤٤)

فليس المستنكر هو أن نأمر الناس بالبر إذا كنا لا نعمل



به، وإنما المستنكر هو أن ننسى أنفسنا من الخير الذى نعمله للغير. كذلك المستنكر هاهنا ألا يحبنا الآخرون الذين نحبهم.

ومهما يكن من أمر فى تأويل هذا النص الكريم، فحسبنا أن نسجل ها هنا ما سجله الله فى غير موضع من كتابه المجيد، وهو أن هذه المحبة الشاملة، والرحمة السابقة، خلق من أخلاق النبوة المحمدية، وأن نسجل إلى جانب ذلك قول الله سمت هدايته:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾

(الأحزاب: ٢١)

ليخرج لنا من بين هاتين المقدمتين مصداق القضية التى نقررها، وهو أن هذه المحبة الشاملة هى الخلق الذى يرضاه الله لسائر المؤمنين. لكأنى بمن يقرأ هذا البحث فى هذه المحبة والرحمة التامة العامة، يظنه حديثًا عن حلم من الأحلام، أو عن شريعة غير شريعة الإسلام، أو عن عالم غير عالم الإنسان...

نعم لكأنى به يهمس الآن فى أذنى قائلا:

أليس كل بشر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالى ويعادي. دلنى على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادى أحدًا، أقل لك إنه إذا لا يحب ولا يوالى أحدًا،



إنه إذا ليس من البشر . . . هبه خيرًا محضا ، فهو إذا يحب الحق والخير ، وبالتالى يحب أهل الحق والخير ويواليهم ، وهو إذا يكره الإثم والباطل ، وبالتالى يكره أهل الإثم والباطل ويعاديهم . فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك ؟ وإذا كانت هذه هى طبيعة النفس الإنسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسنا تجريدا كاملا عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق ، أليست هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا ، وتكليفًا لنا بما ليس فى وسعنا ، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية ، كيف تتفق مع واقعية الإسلام . بل مع وصايا الإسلام ؟ أليس من علامة الإيمان الحب فى الله ، والبغض فى الله ؟

إن فى أدب القرآن ، مبدأين متعارضين ، أو بعبارة أدق يبدوان متعارضين فى بادئ الرأى ؟

المبدأ الأول:

مبدأ الفضيلة الإنسانية والتى تتقاضانا أن نشمل الناس جميعًا برحمتنا ومحبتنا تخلقًا بأخلاق الله ، الذى وسعت رحمته كل شىء ، وتأسيًا برسول الله ، الذى كان مضرب المثل فى الشفقة على الجميع ، والحرص على خير الجميع ، وانتظامًا فى سلك المؤمنين الأولين ، الذين كانوا يحبون أهل الديانات السابقة وإن كان هؤلاء لا يحبونهم ، وأخيرًا عملا بتوجيه القرآن الكريم الذى عقد بين الناس



جميعًا رحمة الأخوة النسبية، ثم جعل التذكرة بهذه الأخوة وسيلة لاستدرار عاطفة الرحمة على كل من يشاركنا فيها فقال عظمت حكمته:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾

(النساء: ١)

فوصى بصلة الأرحام كلها قريبها وبعيدها، رحمة العقيدة، ورحمة الإنسانية الجامعة.

هذه الفضيلة الإنسانية، إذا كانت فضيلة حقيقية، منبعثة عن نفس راضية مطمئنة، فإنها تقتضينا أن نحب فلا نبغض أحدًا وأن نوالى فلا نعادى أحدًا.

هذا هو المبدأ الأول. مبدأ المثالية العليا.

المبدأ الثاني:

مبدأ الواقعية العملية الذى تتسم به وصايا القرآن فى شئون التشريع عامة، وفى شأن الحب والبغض خاصة.. فالقرآن يقرر ويكرر أنه دين الفطرة، وأنه لا يحمل أحدًا فوق طاقته، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها. ومعلوم أن النفس البشرية- وقد طبعت على نزعتى الرضا والغضب، وجبلت على غريزتى المحبة والكراهية، لا يمكنها أن ترضى عن



النقيضين ولا أن تجمع بين محبة الشيء وكراهيته، كما ليس فى وسعها أن تتحول من العداوة إلى المودة بمحض اختيارها. ألم يقرر القرآن نفسه أن هذا التحول ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع الله وحده:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾

(الأنفال: ٦٣)

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾

(الممتحنة: ٧)

فانظر كيف اعترف بوجود العداوة بيننا وبين فريق من الناس، ثم لم ينهنا عنها، ولم يأمرنا بالتخلص منها. ولكنه بعث فى نفوسنا الأمل بأن عدو اليوم قد يكون حبيب الغد، إذا شاء الله. وأنه قدير، وأنه غفور رحيم.

وتدبر كذلك قول الله تبارك وتعالي:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾

(المائدة: ٨)

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ



ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ﴾ (المائدة : ٢)

فقرر وجود البغض والشنآن، ولم ينهنا عنه، وإنما نهانا أن نتخذه ذريعة للجور والعدوان، بل هناك ما هو أوضح من ذلك دلالة، ففى هـذه الأمثلة نرى القرآن يكتفى بأن يترك نزعة العداوة والبغضاء على سجيتها فلا يأمر بها ولا ينهى عنهـا، وإنما ينهى عن لواحقها، التى تقع فى حدود إرادتنا وقدرتنـا، ولكننا نـرى القرآن فـى مواطن أخـرى، يأمرنا بعداوة من يسـتحق العداوة، وينهانا عن موادة من يستحق المودة:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

(المجادلة : ٢٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾

(الممتحنة : ٤)

وكذلـك نرى الرسـول- صلوات الله عليـه- يجعل من علامة الإيمان: الحب فى الله والبغض فى الله.

كيـف نوفق إذا بين هذه النصـوص الصريحة المفصلة، وبين تلك الوصايا العامة التى تناشدنا أن نسبغ ثوب عفونا



وصفحنا ، وأن ننشـر جناح رحمتنا ومحبتنا على الإنسانية كلها برها وفاجرها .

هذه هى المشـكلة الأخلاقية التى سنحاول بمشيئة الله حلها .

بطريقـة تلتقى بهـا المثالية والواقعية فـى هذه الوصايا المختلفة . مع بقاء المثالية فيها على عمومها وشـمولها ، دون أن تنقـص الواقعيـة منهـا جزيئة واحدة فـى أى وضع فرضناه من أوضاع حياتنا الاجتماعية . . . .

فالناس معنا فى هذه الحياة على أحد أوضاع ثلاثة :

إما أن يكونوا سلمًا لنا ولمبادئنا ، كافين أذاهم عنا وعن أمتنا ، وإما أن تبدو منهم بادرة أذى تنال أشخاصًا فحسب ، وإما أن ينتهكوا حرمة من حرماتنا المقدسـة فى حق الله أو فى حق الجماعة .

فلنعالج هذه الأوضاع الثلاثة ، لننظر كيف نسـتطيع أن ننطوى على محبة الناس جميعها فى كل وضع منها .

لنبدأ من هذه الأوضاع بأيسـرها وأطوعها لمبدأ المحبة المثالية العالمية ، ألا وهو الوضع الأول ، المسالم المحايد !

قـدر فى نفسـك أنـك قـد اسـتيقظت فى الصبـاح من نومك ، وأخذت تسـتعد لخوض غمـار الحياة فى يومك . . فسـل نفسـك إذا : على أى قاعـدة تريد أن تخالـط الناس وتعاشـرهم ؟ أتريـد أن تتخذهم مقدما عـدوًا لك تبدؤهم



بالعـداوة قبـل أن يبـدأوك ؟ أترتجـل عداوتهـم ارتجـالا ؟ أتبيعهم إياها بالمجان ؟

ليت شعرى كيف ينطوى على هذه النية إنسان ؟

اللهم إلا أن يكون أحد رجلين :

«رجل أفسـد سـوء الظن فكـره وخيالـه، فجعل يتصور نفسـه أمـام قطيع مـن الوحـوش الكاسـرة، فلا بـد له أن يأخذهم قبل أن يأخذوه. وأن يرميهم بالشر قبل أن يرموه!

ورجل أعماه الطمع، وأكل قلبه الجشع، فجعل يظن أن كل نعمـة فى يـد الناس إنما هـى انتقاص مـن نعمته، وأن كل حـظ ينال أحـدًا من الناس إنما هو اسـتلاب من حظه، وأنه لن يكون له نصيب فى الحياة إلا باسـترداد ما سـبقوا إليـه من حظ ونعمة.. نظرات مريضة، ترى الإنسـانية من خلال منظار أسـود قاتم، هذا ينظر إليها نظرة القانص إلى فريسته، وذاك ينظر إليها نظرة الفريسة إلى قانصها.

كلا! ما هكذا ينظر أرباب الطباع الكريمة، ولا أصحاب العقول السـليمة وإنما ينظرون إليها نظرة الطير إلى عشه الذى يؤويه، وإلى أجنحته التى يطير بها.

فكذلـك فلتكـن نظرتنا إلى أفراد أسـرتنا الإنسـانية، نظـرة كل فـرد منـا فـى أسـرته الخاصة إلـى أمـه وأبيه، وإخوتـه وبنيه، نظرة قوامها الحنان والرحمة والاستبشـار والتفاؤل، والعطف وحسـن الظن، نظرة إن خالطها الحذر



حينا ، فإنها فى انطلاقتها الأولى نقية بريئة ، سليمة من كل غل وضغينة .

هذه النظرة المحبة الرحيمة ،الشاملة السابغة ، ليست داخلة فى حدود الإمكان وحسب ، ولكنها واقعية عملية تعرفها القلوب الراضية المطمئنة ، وإنها عند الله لأفضل من كثير من الصلاة والصيام .

إن رسول الله بشر رجلا من الأنصار بالجنة ثلاث مرات فى ثلاثة أيام متواليات . فأخذ عبدالله بن عمرو يحتال لمعرفة سيرة الرجل وعمله الذى استحق به هذه البشارة . فلم يجد له امتيازًا فى نوافل العبادات ، فسأل الرجل عن شأنه فقال له :

« يا عبد الله . . هو ما قد رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى غلا لأحد » . . !

* * *



نحو محبة شاملة

إذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع..

كلمة يوجهها الجمهور دائمًا إلى كل داع يدعو إلى فضيلة نبيلة مثالية.. وأن من أخص هذه الفضائل المثالية فضيلة المحبة الشاملة.

فإذا قال الداعي: لتكن نظرتنا إلى البشر نظرة محبة رحيمة عطوفًا ألوفا، قالوا: إن كنت تعنى أن تكون هذه هى نظرتنا الأولى حين نصبح كل يوم، قبل أن نبدأ صحيفة أعمالنا اليومية فسمعًا وطاعة، إذ لا معنى لافتراض السوء والشر فى الناس اعتباطًا من غير بينة، ولا مبرر لعداوتهم بالمجان، دون تجربة سابقة.

وإن كنت تعنى أن نطبق هذا المبدأ على الذين عاشرناهم وجربناهم فكانوا علينا رحمة وسلامًا، لم يصل إلينا من عشرتهم سوء، ولم ينالونا بأذى، فسمعًا وطاعة كذلك، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

أما إن كنت تريد أن تنشر جناح هذه الرحمة والمحبة، حتى على من خالطناهم فوجدنا منهم خشونة وغلظة، ومنعًا للخير، وهمزًا ولمزًا بالغيب، فقد أمرت بما لا يطاع ولا يستطاع، وتلك هى المثالية الخيالية، التى لا مجال لها فى دنيا الناس، أليست النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، فكيف تأمر أن نحول فطرتنا



ونغير طبيعة نفوسنا، حتى نحب أعداءنا. ؟

ولئن كنت تريد فوق ذلك كله أن نغدق هذه المحبة والرحمة حتى على الذين فرطوا فى جنب الله؛ وأساءوا فى حق المجتمع، حتى على المجرمين والمفسدين، فقد جئت شيئًا نكرًا، إذ كيف تأمرنا أن نحب عدو الله، وعدو المؤمنين؟

هكذا تتنوع الإنسانية فى نظرهم إلى أربعة أصناف: صنفان منهم أهل للمحبة والولاء من أولانا وسالمنا ومن جانبنا وحايدنا، وصنفان أهل للكراهية والعداوة، من عادانا وآذانا، ومن اعتدى على حرماتنا ومقدساتنا، وإن لم يمس أشخاصنا بسوء.

فمن دعا إلى محبة البشر كافة، محبة تنتظم صديقهم وعدوهم، وتسع برهم وفاجرهم، فهو فى نظرهم رجل انطوى على نفسه فى برج عاجي، فلم يجرب أذى الخلق وشرهم، ولم يكتو بنار فسادهم وإفسادهم، ولو أنه نزل إلى ميدان العمل فى الجماعة، لرأى كيف يثير العمل غبارًا تقذى به عينه، وكيف يولد الاحتكاك شرارًا يحترق به صدره، ولكان عليه أن يقول لنا عندئذٍ، كيف يستطيع أن يحب مثار هذا الغبار؛ وكيف يطيق أن يرجح مبعث هذا الشرار؟

ألا فلنلب دعوة هذا الناقد.. لننزل معه إلى ميدان



العمل، ولنستقبل ما يثار فيه من غبار وشرر، ولننظر كيف نعالج المثير والمثار، يقول القائل: كيف أحب عدوي؟ أليس هذا تناقضا وإحالة.

نقول: كلاً! إن هذا التناقض ليس فى الأمر الواقع، ولكن فى الصورة التى صورت بها الوقائع، إنك تسمى المسيء، إليك عدوًا مصرًا عامدًا، فلا تقدر أن تحبه، أما أنا فأسميه صديقًا مخطئًا جاهلاً: أستطيع إذاً أن أحبه.

ولأفسر لك ذلك:

ألست تزعم أنك برئ لم تقترف إثمًا ولا ظلمًا، وإنما آذاك بغير ذنب جنيته؟ إنه إذا لا يوجه هذا الأذى فى الحقيقة إليك وإنما يوجهه إلى شخص مذنب تخيله فيك، ولو انكشف له حقيقة أمرك، لكان بك برًا رحيمًا، بل كان لك وليًا حميمًا، فالتحتمل الآن هذا الأذى ولتغمض عينيك لحظة عن هذا القذى، ريثما ينجلى له وضعك فى سلامة واستقامة، وينكشف له جوهرك فى طهره ونقاوته، وليكن هذا الإغماض والاحتمال على غير كره ولا مضض، ولكن منبعثًا عن قلب مؤمن مطمئن شفيق رفيق.. أرأيت ولدك الصغير حين تعطيه الدواء فيصيح فى وجهك، ويدفع بيديه ورجليه فى صدرك، أتراه بفعلته هذه صار أهلاً لأن تتخذه عدوًا لك، وتنتزع رحمة بنوته من قلبك، ألست ترثى لطيشه ورعونته، وتلتمس له عذرًا من غرارته



وجهالته ، ألست تبتسم له ابتسامة رحيمة يذوب منها خجلاً ، حين يشعر بأنه أذنب فعفوت ، وأنه أساء فأحسنت ؟ فكذلك فلتكن نظرتنا إلى إخواننا الذين يسيئون إلينا فى طيش وجهالة ، من غير ذنب جنيناه . . فتذوق نفوسنا حلاوة العفو عنهم وعن إساءتهم ، ولتطمئن قلوبنا أنه متى انكشفت هذه الغشاوة ، سوف يندم المسيء على فعلته ، وسوف يستغفر لنا عن زلته ، بل سوف تنقلب عداوته محبة وتتبدل سيئته حسنة وصدق الله :

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾
(فصلت : ٣٤)

سيقول السائل لئن صح هذا التفسير فى طائفة من الذنوب يستحب العفو عنها ، والرفق بأصحابها ، فلقد علمنا الكتاب والسنة أن هناك طائفة أخرى من الذنوب ، لا تقبل فيها شفاعة ولا ينبغى أن تأخذنا بأصحابها رأفة ، تلك ، هى حدود الله وحقوق الأمة ، أليس من التناقض البيِّن ، أن نشمل أولئك المجرمين المفسدين بمحبتنا ورحمتنا ؟ أنعاقبهم ونقول لهم إننا نحبكم ؟ أنقتلهم ونقول لهم إننا نرحمكم ؟

رويدًا أيها السائل : إن مفتاح هذه المسألة ، وحل هذه المسألة ، فى تعيين الزاوية التى ننظر منها إلى العقوبة ، وفى



تحديد الهدف الذى نرمى إليه من ورائها، أرأيت الطبيب حين يجرى الجراحة القاسية الأليمة، طلبًا لشفاء المريض وسعيًا فى إنقاذه، أتقول: إنه بذلك قد اتخذ المريض عدوًا له أم هى الرحمة فى جوهرها وصميمها؟ فكذلك نحن حين نقيم الحدود المقررة ونوقع العقوبات الزاجرة، ولا نفعل ذلك تشفيًا وانتقامًا من الأشخاص المذنبين، ولكن تهذيبًا وتطهيرًا لهم، ورحمة بهم وبالجماعة التى يعيشون فيها.. إن صدورنا ينبغى أن تبقى نقية من الحقد والكراهية لأشخاصهم، وإن سهام مقتنا يجب أن نصوبها إلى جرائمهم، لا.. لهم..

أما أنه لو كانت نظرة القرآن إلى العقوبة نظرة التشفى والانتقام من المستحقين لها، إذا لأوقدوها عليهم حربًا لا تطفأ نارها، وما قبل منهم بعد ذلك تبديلاً ولا تحويلاً، كيف وهو يقول:

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ ﴾

(المائدة: ٣٩)

ويقول: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة: ١٩٢)

هكذا تلتقى المثالية والواقعية فى وصايا القرآن الحكيم؟

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾

(التين: ٨)

بلى هو أحكم الحاكمين.

هيئة كبار العلماء

الإسلام.. والعلاقات

هـل جاء الإِسـلام ليكون دينًا محليًا، يسـتوعب جزيرة العرب.. وما حولها؟

وهل جاء ليدعو إلى إيجاد أمة إسلامية تتعصب لدينها وجنسها؟

أولاً– لم يجئ الإِسـلام ليكون ديـن الجزيرة العربية، لأنه بدأ يخاطب الناس جميعًا: وأعلن أن رسالته إلى العالم كافة.

وثانيـا– لوجـاء ليكـون أمـة إسـلامية وسـطا، تأمـر بالمعـروف وتنهى عن المنكر، لما كان فى ذلك شـيء.. وإنما الحقيقة التى يجب أن توضح لكل ذى عينين، هى أن الإِسـلام وإن كان قد جاء لتأليف أمة إسـلامية ناهضة – إلا أنه قد دعا إلى أخوة عالمية تقوم على أساس من التعارف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾

(الحجرات: ١٣)

ودعا إلى العلاقات العامة على أسس من الحب والبر والعدل:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

(الممتحنة: ٨)

وقد نشـد الإِسـلام السـلام العالمي. ليكـون دعامة فى العلاقات الدولية:



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾

(البقرة: ٢٠٨).

والإسلام عنى بكرامة الفرد، الذى هو لبنة فى البناء الإنساني، وذلك ليكون عضوًا مؤسسًا فى العلاقات العامة:

﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

(الإسراء: ٧٠).

إن هدف الإسلام من إيجاد أمة إسلامية، إنما لتكون أمة وسطًا، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وذلك لتؤدى مهمة نبيلة إنسانية من أجل السلام العالمي، والأمن الدولي.

ولا ريب فى أن أمة - هذا هدفها، وهذه رسالتها - لا بد أن تدعم بناء العلاقات العالمية وتعمل على صيانتها، ضد عواصف الشر، وملاحم الفتن.

إن فى قوله تعالي:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(الأنبياء: ١٠٧).

معنى إنسانيا وافيًا، لا يدع مجالاً لذرة من الريب، فى أن الإسلام إنما جاء ليمنح البشرية: الأخوة .. والحب .. والسلام ..

الإسلام وكرامة الفرد

الفرد هو اللبنة فى بناء المجموع، وهو عضو مؤسس فى العلاقات العامة. فهل عرف الفرد الإنسانى ماله فى دستور الإسلام. من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التى يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية، ليست كرامة مفردة ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هى عصمة وحماية، وكرامة هى عزة وسيادة، وكرامة هى استحقاق وجدارة..

كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾

(الإسراء: ٧٠).

وكرامة تتغذى من عقيدته

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨).

وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾

(الأنعام: ١٣٢).

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

(هود: ٣).

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأقدمها وأدومها، تلك



الكرامة الأولي ، التى ينالها الفرد منذ ولادته بل منذ تكوينه جنينًا فى بطن أمه .. كرامة لم يؤد لها ثمنًا ماديًا ولا معنويًا ولكنها منحة السماء التى منحته فطرته ، والتى جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين فى شريعة الإسلام.

ما حقيقة تلك الكرامة ؟

إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة. هى ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر : ذكرًا أو أنثي ، أبيض أو أسود ، ضعيفًا أو قويًا ، فقيرًا أو غنيًا من أى ملة أو نحلة فرضت .. ظل ظليل ، ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يسفك ، وعرضه أن ينتهك ، وماله أن يغتصب ، ومسكنه أن يقتحم ، ونسبه أن يبدل ، ووطنه أن يخرج منه أو يزاحم عليه ، وضميره أن يتحكم فيه قسرًا ، وحريته أن تعطل خداعًا ومكرًا..

كل إنسان له فى الإسلام قدسية الإنسان ، إنه فى حمى محمي ، وفى حرم محرم .. ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه وينزع بيده هذا الستر المضروب عليه ، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبًا من تلك الحصانة ، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها ؛ لأن جنايته ستقدر بقدرها ، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها ؟ فإن نزعت عنه الحجاب الذى مزقه هو ، فلن تنزع عنه الحجب الأخرى.



بهذه الكرامة يحمى الإسلام أعداءه كما يحمى أبناءه وأولياءه إنه يحمى أعداءه فى حياتهم. ويحميهم بعد موتهم، يحميهم فى حياتهم، فيحول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان .. ويحميهم فى ميدان القتال نفسه، إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال. ثم يحميهم بعد موتهم. إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل .. ولم لا ؟ أليسوا أناسي؟ فلهم إذن كرامة الإنسان..

هذه الكرامة التى كرم الله بها الإنسانية فى كل فرد من أفرادها، هى الأساس الذى تقوم عليها العلاقات بين بنى آدم .. هذه الكرامة التى جعلها الإسلام درعًا واقيًا يدرأ بها عن الإنسانية نزوات الطغاة والجبارين، هل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر. والشعور الحاد القوى شيء ثالث .. حسن جميل أن تقرر الحق لأربابها وتوضح لهم معالمه .. ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته فى نفوسهم شعلة متقدة تدفعهم للذب عنه والاعتزاز به .. فهل صنع الإسلام شيئًا لكى يغرس فى نفوس الأفراد ويوقد ناره فى قلوبهم؟.

نعم .. إن الإسلام لم يكتف بأن عرف كل فرد حقه نظريًا فى هذه الحصانة الإنسانية، ولكنه أخذ يهيب به أن



يدافع عن هذا الحق، وطفق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه وأن يضحى بنفسه فى سبيله.

ألا فلنسمع صوت نبى الإسلام عليه السلام:

«من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد»[٥]

هل سمعت أقوى من هذا إلهابًا وتحريضًا؟

بل لنستمع إلى كتاب الإسلام حين ينعى على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعًا فى السلام، ورضاهم الهوان خوفًا من فراق الأوطان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾

(النساء: ٩٧).

هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا؟..

إن الكرامة الإنسانية هى قبل كل شيء سياج من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة تصون صاحبها من أن يهون على الناس أو يضيعوا حقًا من حقوقه أو ينتهكوا حرمة من حرماته.. ذلك هو جانبها السلمى الخارجى الدفاعي، أما

(٥) حديث الترمذي: ديات ٢١.



حقيقتها الإِيجابية الانبعاثية، فإنها تاج من الشرف والنبل يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة احترام وتكريم، نظرة يعرف بها أن مكانته فى هذا العالم مكانة السيد لا المسود. لا أعنى سيادة الإنسان على الإنسان، فالناس فى نظر الإسلام كلهم سيد فى نفسه، لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه.

وإنما هى من جهة سيادة عالمية يسيطر بها المرء على مختلف الأشياء فى البر والبحر والهواء، ألم يسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا، ولم يسخره هو لشيء منها؟ ثم هى من جهة أخرى سيادة ذاتية لكل فرد فيما بينه وبين الناس، سيادة تسوى رأسه برءوسهم ومنكبه بمناكبهم، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الإنسانية.. كرامة الحرية والعزة التى تأبى بصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يذل لمخلوق غيره كائنًا من كان.

هذه المرتبة من الكرامة هى كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان، غير أنه لا يشعر بها على تمامها، ولا يقدر حق قدرها إلا المؤمن الموحد الذى لا يعرف السجود لحجر، ولا لشجر ولا لشمس ولا لقمر ولا لملك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإيمان إلى كرامة الإنسان.

وأخيرًا ترتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة



إلى مستوى السلوك والسيرة، لتلتقى بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ويكتسبها اكتسابًا، بما يخطه لنفسه من نهج حميد، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة مستوحيًا مواهبه الإنسانية العليا، مسيطرًا على قواه وغرائزه الدنيا، مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خدع شيطانه وهواه، تلك هى كرامة العمل الصالح المصلح، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص فى العمل.

هذا الرق:

قد يقول قائل. «إذا كان الإسلام قد كرم الفرد، وهو لبنة فى بناء البشرية، فما لنا نراه لم يبت فى إلغاء الرق؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار.

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟ وهل كانت حملتنا الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان، وإن الاستعباد



تبديل للفطرة، فكيف يكون من نظم الإسلام الذى هو دين الفطرة.

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام، قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشأوا الرق أبيضه وأسوده وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب.

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع.. ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام.

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب. فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدًا لولى الدمٍ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه. وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقًا لرب المال. ومصداقه فى قصة يوسف:

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

(يوسف: ٧٥)



وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية، محمد خاتم النبيين، وقدوة المصلحين.

فماذا صنع محمد حين جاء بالإسلام؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها .. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر وثورته على الربا، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة. والرذائل الموروثة المتمكنة.

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة..

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة، إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة، نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث



صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردًا وسلامًا .. ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

وسأفسر لك ذلك :

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقى الذى وقف به سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين. ذلك هو القانون الذى منع به استرقاق الأحرار وأمنهم منه، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب .. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل، لم يعد شيء من ذلك كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مبررًا لاستعباد الإنسان. ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار، والإماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها .

أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب



التى أشـرنا إليهـا ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشـاء رق جديـد ، إلا أنه قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذًا صغيرًا لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام(٦) .

أليست الشـريعة قد أباحت للمسـلمين فى هذه الحال أن يعاملـوا أسـرى المحاربين لهم بإحـدى خطط ثلاث إما بإطلاق سـراحهم ، وإما باسـترقاقهم - ولـو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثـلاث فالواقـع أنهـا فى نظر الإسـلام ليسـت سـواء فى المشـروعية . فنحن إذا نظرنا فى نصـوص القرآن الكريم ، لـم نجد فيـه أثرًا لقتل الأسـير ولا اسـترقاقه وإنما نجد له فيه مصيرًا واحدًا كريمًا ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل .

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

(محمد : ٤)

كما أننا إذا تتبعنا سـنة الرسـول الرحيم لا نجد فيها أنه أذن قط بقتل الأسـير إلا فى حالة شـاذة نادرة كان الأسـير

(٦) وتكون الحرب في الإسلام مشروعة كذلك لتحطيم الطاغوت وإقامة شرع الله في الأرض لا لإكراه الناس علي الإسلام قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وقال سبحانه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.



فيها معروفًا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين. وهـذا هو مـا يعرف فـى لغة العصر باسـم عقوبـة مجرمى الحرب..

بقـى الاسـترقاق، وواضـح أنه يلـى القتل فى القسـوة والشـناعة وأن الإسـلام ينظر إليه كنظرته إلـى القتل، كما أن الحريـة فـى نظره شـقيقة الحيـاة، ألا تـرى كيف جعل كفـارة القتل الخطأ تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مسـتوى الحرية يعد إدراجًا له فى زمرة الأحياء .. بعد أن كان محسوبًا فى عداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه، ما يشـجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعلـه فى نظرهم سـواء هو والمن على هؤلاء الأسـرى بالحرية، فإن لجأ الإسـلام يومًا إلى استرقاق الأسير، فإنما يكـون ذلك منه نـزولاً على حكم الضـرورة، اتقاء لخطره وكسرًا لشوكته وشوكة قومه على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي، وإنما يأخذه إجراء مؤقتًا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الـذى يرضاه، ويلح فى المطالبـة بتحقيقه .. ألا وهو التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثانى من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب



الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية.

*ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب .. فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾

(البلد: ١١ - ١٣).

«من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار»[٧].

ومفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة، إذ جعل فيها سهمًا مقررًا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾

(التوبة: ٦٠)

● ومفتاح ثالث: هو مفتاح قانون الكفارات، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان، والقتل الخطأ، وغير ذلك، ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة

(٧) متفق عليه.



التـى تقع من السـيد فى حق العبد نفسـه . وفى ذلك يقول رسول الرحمة :

«من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»(٨)

هـذا جـزاء اللطمـة أو الضربـة ، أمـا الجرح أو تشـويه الجسـم ، فـإن حكمه عند أكثر الأئمة أنـه يصير العبد حرًا بمجـرد إصابته ، فينزع من ملك السـيد قهرًا عنه . وكذلك إذا كلفه سـيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك ، وهكذا يقودنـا الحديـث إلى الشـطر الثالـث والأخير مـن العلاج الإسلامى الرحيم .

لقـد رأينا أبوابًا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابًا أغلقت دون الـرق . بيـن هذيـن الطرفيـن تـرى طائفة مـن الأرقاء يتوجهون نحـو باب الخروج ولكنهم لـم يصلوا إليه بعد . إنهـم هنالـك ينتظرون دورهم فى استنشـاق هـواء الحرية المطلـق ، فهـل صنع الإسـلام شـيئًا لهـذه الفئة فـى فترة الانتظار ؟ ؟

نعـم لقد فتح لهم فيهـا نوافذ للتهويـة ، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشـعرون بتلك الفـوارق الظالمة بيـن الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسـلوب المعيشـة

---

(٨) مسلم إيمان ٢٩ ، ٣٠.



لخادمهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين:

«إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٩]

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

١- منع لإنشائه وابتدائه.

٢- عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣- عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته.

فهل من منصف يقولها معي:

أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام..!

* * *

(٩) حديث: البخاري: إيمان ٢٢.



الإسلام..والسلام

إذا كان الإِسلام قد دعا إلى السلام وتدعيم العلاقات الطيبة مع العالم أجمع، فلم كانت حروبه فى المرحلة الأولى من الدعوة وما تبعها ؟

إنه ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإِسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة ؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه، لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه، وإنما يستبين موقف الإِسلام واضحًا جليًا فى هذا الضرب من المسائل، حيث يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر، والتى يبرز بها التشريع الإِسلامى فى وحدة لا تنقسم وعروة لا تنفصم، تلك هى الآيات المحكمات وهن أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذًا فى وسطه لا فى طرفيه، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه . وسنريك الآن أين الأطراف، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا . فانظر هاهنا، فى أقصى الجانب الأيمن !

أليس يبرز الإِسلام أمامك فى شعاب «مكة» ووديانها رافعًا راية السلام، باسطًا جناحى رأفة ورحمة يفيء إلى ظلهما الوارف، أنصاره وأعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع



كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله؟ فإذا هى هداية وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير، ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة: «بلاغ».

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾

(النحل: ١٢٥)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾

(القصص: ٥٦).

﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾

(الغاشية ٢١-٢٢)

وزد ما شئت من سماحة وكرم، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا لانتقام، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام..، الإسلام إذاً هو رسالة السلام. ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر!

ألست تسمع من قبل «المدينة» صيحات النفير إلى النزال وقعقعة السلاح فى ميادين القتال؟ أولست ترى هنالك أشلاء تتناثر، وأطرافا تتطاير، وأعناقا تدق، ودماء تسفك، وأرواحا تزهق، وأسرى يشد وثاقهم، وشهداء يُهنأون بنبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ﴾

(الأنفال ٦٥).



الحرب إذا شريعة إسلامية، وفريضة محمدية. بل هي أعظم من ذلك، إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق.

يا الله! ما أبعد الشقة، وأشد المفارقة! أمن السلام الأبيض الناصع الرحيم المتواضع، إلى الثورة الحمراء القانية والحرب الفاتكة المهلكة؟

تلك هى المشكلة التى فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها.. وما أكثر الفروض. وما أبعد تشعب الظنون، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف فى محراب العلم وهو لما يفيق من نشوة نزعاته وعصبياته، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأي، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه، وأكثر تملقًا لشعور قومه، ثم يرسلها فى الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ.

وما هى من العلم ولا من التاريخ فى شيء!

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل فى معالجتهم لهذه الشخصية.

أكان محمد متعطشا للدماء بفطرته، ولم يمنعه من سفكها إذ كان فى «مكة» إلا أنه كان من الأعوان فى قلة ولم يكن أعوانه فى عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء



والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه إليها العجز وفقد النصير، حتى إذا واتته الفرصة فى موطنه الجديد اهتبلها وغمس يده فى الدماء إشباعًا لغريزة الثأر والتشفي؟

أم كان هذا الموقف الحربى متحركًا بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه، ولكنه دفع إليها دفعاً، وكان فيها تابعًا لا متبوعًا؟ ذلك أنه وجد نفسه فى قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب، فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى فى تيارهم.

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب، ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقًا خلبًا، وسرابًا خادعًا.

نعم فقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالًا بعيدًا فى كل شيء ضربوه.

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره: فى شبابه وكهولته فى بأسائه ونعمائه، حتى فى أوج سلطانه، شهدوا بأن محمدًا لم يكن يومًا ما، فظ الطبع، ولا غليظ القلب، وفى الوقت نفسه بأنه لم يكن يومًا ما إمعة فى رأيه، ولا رخوًا فى حكمه، وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له: لا يمليها سوط ولا صولجان، ولكن يبعثها الحب والمهابة والطاعة والثقة والإيمان وكذلك شهد



التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار، لم يكن سببًا فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه، فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته. فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوه من أول يوم، ولكانوا أطوع له من بنانه، ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلًا مستغرقًا بشعائر دينه، وشئون قومه، وكان كل شيء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة. وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثًا فجائيًا حقًا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه.

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد، بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى. وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر فلم يفعلوا. ولو أنهم طرقوا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها.

فالواقع أن أول حرب فى الإسلام لم يوقدها المسلمون،



بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها، لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليًا. والمتسببين فيها من طريق مباشر، وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدي، وردوا التعدي.

إن قريشا غيرت أسلوبها - بعد الهجرة - في معاملة المسلمين المستوطنين في مكة. خلا لها الجو فوالت التنكيل بهم، وما زال طغيانها عليهم يزداد يوما بعد يوم، حتى عيل صبرهم، وطفح كيل بلائهم، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، في صرخات عالية تسمع دويها في القرآن الكريم.. وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء: ٧٥)

لم تكن الغزوة الأولى إذًا حملة تحرش وبدء بالعدوان، كما زعم الجاهلون، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع. ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت،



أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديـار المهاجرين وأموالهم، كما قـد يظن بادئ الرأي، ولـو فعلـوا لكان حقًـا لهم تقره كافة الشـرائع السـماوية والوضعية، ولكنه حق مشـروع فحسـب، وكان من السائغ التنـازل عنـه، كلا، لم يكـن هـذا ولا ذاك، ولكنها كانت عملًا أعلى من ذلك كله وأسـمى. لقد كانت قيامًا بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، واجب نجـدة المظلوم، وإغاثة الملهـوف. فهى إذًا صفحة فخار جديرة أن تسـجل فى أعلـى مكان من ديوان التضحية والإيثار، وليست عملًا عاديًا يتطلب التبرير أو الاعتذار!

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت بـه أفهام، وزلت فيـه أقلام، نعود إلى سـياق الحديث عن المبادئ العامة فنقـول: إن أمثال هذه الضلالات والزلات فى تحديد موقف الإسـلام من الحروب، مردها ـ كما أسلفنا ـ إلـى النظرات الجزئيـة الجانبية فى نصوص التشـريع، وإلى تلك الوقفات المتـرددة عند أطرافها المتباعدة. ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى السـلام فى السـور المكية، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدني، وهو آخر دورى التشـريع الإسلامي، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفـوس المريضة، فقد خيـل إليها أن شـريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية، وأنها تمثل انقلابًا



نهائيًا محيت به آية السلام فى الإسلام. وإنه لمن العجيب والمؤسف حقًا أن أكثر الكتاب الغربيين لايزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم، حتى إن بعض كبار المستشرقين، الذين عاشوا بيننا ودرسوا لغتنا، وتولوا إدارات فنية في دورنا العربية، كتبوا فى الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولاً مطولة عن الإسلام، قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة، وكانت زلتهم كغيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطيه المنفرجين، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان.

وها نحن أولاً ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط، الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة، وحجة دامغة، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات، فإنه متى ظهر النص بطل القياس، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس.

أجل: إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية توائمه، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك، إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيرًا شافيًا لموقع كل تشريع، وتحديدًا كافيًا لمجال تطبيقه، أما وهو دستور الإنسانية



الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على ظروف واقعية فى عصر نزوله، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه، ويكون مرجعًا للناس على مر العصور والأجيال، ولا سيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء.

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة، إنما هى استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية، إنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها، وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة، ولا تستأخر خطوة:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٠)

﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة: ١٩٢).

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾

(الأنفال: ٦١)



﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

(النساء : ٩٠)

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ (النساء : ٩١)

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية :

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦)

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

(يونس : ٩٩).

ومنع حروب التشفى والانتقام للإساءات الأدبية :

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾

(المائدة : ٢).

وأنكر حروب التخريب والتدمير ، وحروب الفتح والتوسع والاستيلاء : .

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾

(القصص : ٨٣)



واســتنكر حروب التنافس بين الأمم فى مجال الضخامة والفخامة :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾

(النحل : ٩٢)

فهـل كان يـراد منه فوق ذلك كلـه أن يمحو حق الدفاع عــن النفــس والحليــف ، وواجب الــذود عن المســتضعف والمظلوم؟ كلا : إن الإِســلام دين إحسان ، ولكنه إحسان لا يناقـض العدل ، ولا يشـجع الإِجرام ، ولا يـدع الحق مكبل اليديـن إذا أراد الباطـل أن يفتك به ، إنه ذو رحمة واسـعة ، ولكنــه لا يرد بأســه عن القــوم المجرمين . فهــو دين عدل وإحســان معاً ، وبذلك فضل الشــرائع الســابقة التى فرقت بينهما . ولقد علمنا كيف ينزل بالحكمة كلا المبدأين فى منزلته ، وحذرنا أن نضع واحدًا منهما فى موضع صاحبه .

فـوضـع الـنـدى فـى مـوضـع السيف بالعلا
مُضِرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى(١٠)

* * *

(١٠) البيت للشاعر المتنبي.



القانون الدولى.. والإسلام

يكاد يتفق علماء التشريع فى الغرب ، ويتابعهم كثير من الشرقيين ، على أن فكرة «القانون الدولى العام» فكرة حديثة العهد ، ابتدعتها أوروبا فى العصر الأخير .

هذا الحكم صحيح فى الجملة ، ويلوح لنا أنه غير قابل للجدل والمناقشة مادمنا نبعد بموضوعه عن محيط التاريخ الإسلامي ؛ فالنظام الدولى فى الحقيقة لم يكن معروفًا خارج هذا المحيط ، لا فى العصر القديم اليونانى والروماني ، ولا فى العصور الدينية الأولى فى اليهودية والمسيحية .

أما العصور الدينية المذكورة فمن الميسور أن نتبين فيها هذا الفراغ ، وأن ندرك أسبابه ؛ ذلك أنه حين تأسيس هاتين الديانتين لم يكن أمامهما علاقات دولية تتطلب هذا التشريع .

وأما العصور اليونانية والرومانية القديمة ، فإن خلوها من هذا التشريع مرده إلى أسباب تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فليست المسألة مسألة انقطاع الصلة بين هاتين الدولتين وبين العالم الخارجي ؛ إذ أن تلك العلاقات الخارجية لم تعوز هاتين الدولتين يومًا ما ، ولكن نظرتهما نفسهما إلى الحياة لم تكن لتسمح لهما بوضع تشريع كهذا .



ولو أننا بحثنا فكرة القانون الدولى فى أوروبا فى العصور الحديثة، ما وجدنا كبير فرق بينها وبين تلك العصور الأولي، على رغم التقدم الفعلى فى تدوين قواعد هذا التشريع العام: ذلك أن فكرة تساوى الناس أمام القانون ـ تلك الفكرة التى طالما طالبت بها الشعوب وتشدقت بها الحكومات ـ لم تتخذ بعد فى نظر الغربيين صبغة القانون العام الشامل، ألم يقل «استوارت ميل»[11] باستحالة تطبيق القانون على الشعوب الهمجية أو لم يحدد «لوريمير» على وجه الأرض مناطق ثلاثًا تخضع كل منها لقانون مختلف؟ فالعالم المتمدين يجب أن يتمتع فى نظره بحقوق سياسية كاملة، والعالم نصف المتمدين يكفى أن يتمتع بحقوق سياسية جزئية، بينما الشعوب غير المتحضرة ليس لها إلا حقوق عرفية لا تحمل إلزامًا قانونيًا، وجاء ميثاق «عصبة الأمم» بعد الحرب العالمية الأولي، فأقر هذا التقسيم الثلاثى وأكسبه سلطة القانون.

وأخيرًا شكلت «جمعية الأمم المتحدة» بعد الحرب العالمية الثانية، فماذا رأينا؟ أليس روح التفريق وعدم المساواة لايزال مسيطرًا فيها على عقول السادة الذين يتحكمون فى مصير الإنسانية إذا أردنا أن نظفر بتشريع دولى عام

---

(١١) فيلسوف واقتصادي إنجليزي (١٨٠٦ - ١٨٧٣) له كتاب في المنطق الاستدلالي والاستنتاجي.



يصطبغ بالصبغة العالمية الحقيقية، فعلينا أن نرجع بذاكرتنا إلى عصر رسول الإسلام.

كلنا نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث زهاء عشر سنين فى اتصال دائم بأمم وديانات مختلفة، معادية طورًا ومسالمة طورًا وطبيعى أن هذه الظروف الخاصة التى جعلت للإسلام سلطانًا زمنيًا وحكمًا عالميًا - إلى جانب كونه عقيدة روحية، ومبدأ أخلاقيًا - كانت تتقاضاه أن يضع تشريعًا لقانون السلم والحرب بين الأمم، وقد كانت إجابته لهذه الحاجة الملحة شافية لغلة المشرعين مرضية للضمائر السليمة لدى الحكماء وذوى الخلق الكريم.

وليس لمكابر أن يدعى أن الإسلام إنما حمل السلاح لفرض عقيدته. وهذا هو مبدأه:

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

(البقرة: ٢٥٦)

وليس لهذا المكابر أن يدعى أن فكرة الفتح والتوسع كانت مسيطرة على المسلمين، وهذا هو مبدأه أيضاً:

﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ ﴾

(القصص: ٨٣)

إن الحرب المشروعة فى الإسلام هى «الحرب الدفاعية».

ويجمل بنا أن نشير إلى أن كلمة الدفاع ينطوى تحتها



نوعان قد أشار القرآن إلى كليهما :

١ ـ الدفاع عن النفس. وفيه يقول الكتاب المجيد :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾

(الحج : ٣٩، ٤٠)

٢ ـ الإغاثة الواجبة لشعب مسلم أو حليف عاجز عن الدفاع عن نفسه :

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

(النساء : ٧٥)

من هنا نرى أن الحروب فى نظر الإسلام شر لا يلجأ إليه إلا المضطر، فلأن ينتهى المسلمون بالمفاوضة إلى صلح مجحف بشيء من حقوقهم، ولكنه فى الوقت نفسه يحقن الدماء، خير من انتصار باهر للحق تزهق فيه الأرواح.

وإن لنا فى موقف الرسول فى غزوة الحديبية لنموذجًا حسنًا لهذا الروح العالى فى التسامح والصفح، حرصًا على السلام من جانب الطرف الأقوي، فهو لم يكتف بالرجوع



مع جيشه من حيث أتوا، وبتأجيل ما كانوا أجمعوا على أدائه فى ذلك العام من المناسك «زيارة الأماكن المقدسة»، ولم يكتف بأن رضى بتجريد اسمه فى نصوص الهدنة من كل لقب تشريفى هو أهله، ولكنه فوق ذلك كله قبل مختارًا مقترحات الهدنة التى لا يعامل فيها الطرفان على قدم المساواة، بل تخول الأعداء حقوقًا لا تخولها المسلمين.

ولم تكن لترجح كفة الحرب فى نظر قائدهم الأعلي، ولم تكن لتعدل به عن طريق السلام الذى يحفظ به دماء الناس وأرواحهم. ولنستمع له حين يقول مصمما فى جواب السائلين له عن السر فى هذا العدول عن مكة: «والله لا تدعونى قريش إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم. إلا أعطيتهم إياها». [السيرة النبوية لابن هشام».

إن القرآن حين أباح الحرب الدفاعية المشروعة قد ميز تمييزًا واضحًا بين المحاربين وغير المحاربين، فأمر بألا يقاتل إلا المقاتل، ولابد أن نفهم من كلمة المقاتلين: أنهم الذين يحضرون ميدان القتال بالفعل، ويستخدمون فيه قوتهم العدوانية.

ولقد استرشد التشريع الإسلامى بتعاليم النبوة فى هذا الشأن فحدد هذا الشرط على وجه يزيل كل لبس، ويكفل إبعاد شرور الحرب عن الضعفاء، ويجنب المدنيين كل ويلاتها، فالأطفال، والشيوخ، والنساء، والمرضي، والمعتوهون، بل حتى الفلاحون فى حرثهم، والرهبان فى معابدهم، كل



أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحروب.

والذى يلفت نظرنا بوجه خاص فى هذا المقام هو حرص الإسلام - لا على حماية هؤلاء الضعفاء من الأضرار المادية فحسب - بل على حمايتهم أيضًا من التعرض لكل ألم نفسى لأن الإسلام يهدف إلى إيجاد العلاقات الطيبة مع أبناء البشرية جميعًا.

ومن القواعد الأساسية للحرب فى نظرة الإسلام أنه كان يأبى فرض حصار يرمى إلى حبس الطعام عن مدن الأعداء ويوجب حصر العمليات الحربية فى الأهداف العسكرية، بالنهى عن استعمال الأسلحة البعيدة المدي، وخاصة كل وسيلة عامة للتدمير كالتغريق والتحريق.

ويستنكر تلك العادة الهمجية التى يشيع استعمالها فى أثناء الحروب، ألا وهى تعذيب الأعداء ومعاملتهم بالقسوة والخشونة، ثم إننا نجد تعاليم الرسول التى كان يوجهها إلى قواد حملاته الحربية زاخرة بنصائحه لهم على التزام النظام وحسن السلوك فى قتالهم. ومن بين هذه النصائح تحذيره المتكرر لهم من السلب، والنهب، والقتل غدرًا، والتمثيل بجثث القتلي.

ولقد بلغت به دقة تطبيقه لحكم القرآن الذى يأمر بالعفو عن الأعداء متى انتهوا عن عدوانهم، أن نهى عن تعقب من يفر منهم من الحرب، فما بالك بمن يلقى سلاحه ويتقدم



إلينـا فى صراحة بعبارات السـلام والاستسـلام؟ إن القرآن ليحرم علينا إيذاؤه تحريمًا قاطعًا، حتى لو كان ذلك بحجة الشك فى صدق إيمانه:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

[النساء: ٩٤]

تلـك كلها أدلة ملموسـة علـى أن الإسـلام لا يرمى قط إلى القضاء على أعدائه، ولا إلى الاسـتيلاء عليهم بالقهر، ولكـن إلى تجنب خطرهم، فمتى تحقق هذا الغرض لم يبق للصراع فى نظره مبرر؛ لأن هدفه إيجاد العلاقات العامة مع الناس قاطبة.

العلاقات السياسية:

رأينـا كيف نظم الإسـلام حالة الحـرب.. فلننظر الآن، كيـف نظم علائق السـلم. وأول ما يعنينا مـن ذلك طريقة معاملتـه لمبعوثى أعدائـه، وحاملى رسـائلهم، وممثليهم السياسـيين وهى معاملة يحق لنا أن نقول فيها إنها سديدة مسـتقيمة فالإسـلام فوق مـا يكفلـه لهم من صيانـة وأمن على الأرواح، يمنحهم نوعاً مـن الحصانة الاجتماعية التى تخولهـم حريـة العودة إلـى أوطانهم متى شـاءوا، ولا يدع سبيلاً إلى حجزهم فى بلادنا بحجة أنهم من قوم عدو لنا.



يلى ذلك طريقته فى الاستماع لهؤلاء المتفاوضين، وحسن استعداده للتفاهم أو التعاقد معهم، فالقرآن يحض الرسول على قبول مبدأ الصلح متى وجد من العدو ميلاً إليه:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾

(الأنفال: ٦١)

أما شرائط الصلح وطرائقه، فقد رأينا بصدد هدنة الحديبية، كيف أن روح المسالمة التى كانت تعمر قلب رسول الإسلام، قد جعلته يضحى بكثير من التفاصيل المتعلقة بألقابه الأدبية وبالسمعة الحربية لجيشه وببعض الحقوق الفردية لأتباعه على أنه ليس معنى ذلك أنه يوجب قبول كل اقتراح من جانب الأعداء؛ مهما كان شاذًا، أو ضارًا بحقوق الأمة والأجيال المقبلة، فقد رأينا هذا الرسول الرحيم نفسه، حين عرض عليه مسيلمة الكذاب تقسيم «الأرض» بينه وبينه، يرفض ذلك رفضاً صارماً، ويجيبه بتلك الجملة الحكيمة التى يقتبسها من القرآن:

﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

ولعل أبسط العقود السياسية هو التصريح الذى يصدر من جانب واحد، ولا يلزم إلا الطرف الذى أصدره كإعلان



دولة ما : أنها تلتزم الأمن والحماية لدولة أخرى وأننا لنجد من هذا النوع مثالاً واضحًا فى ذلك العهد الذى أعطاه النبى لأهل سوريا ومن معهم فى أثناء غزوة تبوك، وضمن لهم فيه حرية انتقالهم وأمن قوافلهم البرية والبحرية وحرية استعمالهم للطرق ومجارى المياه، على شريطة واحدة، وهى ألا يثيروا على المسلمين شغبًا.

ولكن المعاهدة بالمعنى الصحيح تتطلب اتفاقًا وتبادلاً للمنافع يقبله طرفا العقد جميعًا، وإن أقل ما يتحقق فيه هذا النوع من العهود، هو التعاقد الذى لا يتضمن إلا التزامات سلبية تنحصر فى امتناع كلا الطرفين عن كل فعل ضار بالآخر. وقد نقل لنا المؤرخون أمثلة لمواثيق من هذا النوع عقدها النبى والتزم فيها الطرفان - إما لمدة غير محصورة، وإما لأجل معلوم - ألا يهاجم أحدهما الآخر، ولا يحالف عدوًا له، ولا يساعد معتديًا عليه، فمن هذا القبيل ميثاقه إلى الهدنة التى عقدها مع قريش فى السنة السادسة من الهجرة لمدة عشرة أعوام.

على أن الحقوق والواجبات المتبادلة إنما تبرز فى أكمل مظاهرها فى عهود الحلف، ومن أمثلة هذه العهود فى حياة الرسول، تانك المحالفتان اللتان مهد لهما صلح الحديبية، حيث خول كل من الفريقين أن يختار حليفًا له من بين القبائل العربية فاختارت «خزاعة» أن تحالف محمدًا،



واختارت «بنوبكر» أن تحالف قريشًا، ولقد كان من نتائج تطبيق هاتين المحالفتين أن نهض المسلمون فى السنة الثامنة لنجدة خزاعة حين نقضت قريش عهدها بإزائها، وينبغى أن يلاحظ أن هذا النقض لم يكن بقتال مباشر موجه علانية لخزاعة، وإنما كان معاونة سرية بالمال والسلاح لبنى بكر عليها، ومن هنا تعرف وجهة نظر الإسلام فى هذه النقطة القانونية.

وهذا مثال طريف لنوع من المواثيق لا نجده بعد إلا فى العصر الحديث: ذلك هو العهد الذى أعطاه النبى لنصارى نجران باليمن يلتزم لهم حرية عقيدتهم ماداموا مسالمين، ويلتزمون له بمساعدات مادية. وهو وإن كان عهدًا محليًا أكثر منه عهدًا دوليًا، إلا أن فيه شرطًا يذكرنا بميثاق الإعارة والتأجير الذى عقدته الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا، لتموين الجيوش الإنجليزية فى الحرب العالمية الثانية.

وبعد فإن من المقرر المعترف به عند الجميع أنه يجب على طرفى العقد - مهما كان نوع المعاهدة التى بينهما - أن يحافظا بدقة على تنفيذ كل شروط الميثاق بنصها وروحها.

غير أن هذا الالتزام يأخذ فى نصوص القرآن طابعًا خاصًا من التشديد ومن القدسية يجعله فرضًا دينيًا بالمعنى الحقيقي، فالميثاق الذى يعقده المسلم لا يرتبط به أمام



الناس فحسب، بل إنه ينعقد في الوقت نفسه بينه وبين الله تعالي، إذ يجعل المسلم ربه شهيدًا وكفيلاً على عقوده والتزاماته، ومن هنا يصبح احترام هذه الالتزامات أمرًا متغلغلاً في النفوس، متصلاً أوثق اتصال بعقد الإيمان، بحيث لا يبقى لقوة في الأرض أن تحلله منه، سواء في ذلك دوافع المنفعة أو طلب النفوذ، أو زيادة الرخاء أو المجال الحيوي، أو التوسع الاقتصادي، أو التوازن السياسي أو غير ذلك، وإلى هذا كله يشير القرآن:

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾

(النحل: ٩١ - ٩٢)

فإذا نحن رجعنا إلى السنة النبوية وجدناها قد بلغت من الدقة في تطبيقها لهذه التعليمات القرآنية مبلغًا ينتزع الاحترام من النفوس.

إن هناك ما هو أعظم دلالة على قدسية العهود والمواثيق في نظر رسول الإسلام، فلم يكن حرصه على الوفاء بعهوده أشد منه على وفاء أتباعه بعهودهم الشخصية، مهما شقت



علـى ضميـر المؤمنين . ومن أطرف الأمثلة فى ذلك وأشـدها غرابـة حادثـة حذيفـة وأبيه ، فقد كانـا قطعا على نفسـيهما لبعض الأعداء عهدًا بدون استئذان الرسول - ألا يقاتلاهم فلما جاء وقت القتال اسـتفتيا فى ذلك رسـول الله ، فما كان جوابه إلا أن قال : « انصرفا ففيا لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم » .

والنقـض لا يصـح أن يحـدث اعتباطًا وابتـكارًا من قبل المسـلمين تحـت تأثيـر الأغـراض والمنافـع ، أو بباعث الهـوى والعاطفة ، بل لابد أن يكون مسـبوقًا باسـتفزاز من قبل الخصم وبأمارات تدل على أنه ينوى خيانة العهد - كما لا يصـح أن يكـون قطع العلائـق عمليًا فقط وبدون سـابق إنذار ، وإلا لكان غسـلا للخيانة بالخيانة ، بل لابد أن يكون نبذًا للمعاهدة صريحًـا واضحًا ، وأن يصل إلى علم الخصم فى الوقت المناسـب ليكون على بينة من نيتنا نحوه ، حتى نكون وإياه سواء فى ذلك وهذا هو الإسلام .

إن التشـريع الدولى فى الإسـلام لا يكتفى بأن يستوحى فى كل خطوة من خطواته روح العدالة والمساواة بين الناس أمام القانون ، بل أنه يسـتمد من ينابيع أشـد عمقًا من ذلك كله . يستمد من منابع الإيمان الصحيح ، والخلق الكامل .

ونسـتطيع أن نقـول - ووثائق التاريخ بيـن أيدينا : إن هذا التشـريع الدولـى العام فى الإسـلام صفحة فخار ؛ تشـهد له بحرصه على إيجاد علاقات طيبة مع البشـر قاطبة ، لأنه دين إنسانى خالد . . !



ملحـــق
عن الإيمان والإلحاد (١)

(١) وهو شرح العلامة الدكتور دراز للحديث الذى رواه أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ : «إن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه: «إنا لنجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به.. قال: أوقد وجدتموه؟» قالوا: «نعم» قال: «ذاك صريح الإيمان».. (المختار من كنوز السنة النبوية: شرح أربعين حديثًا فى أصول الدين) ص٤٩١ ــ ٥١٤ ــ طبعة دار القلم ــ القاهرة والكويت سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.



● عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : «إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به» . قال : «أوَقَدْ وجدتموه ؟ قالوا : نعم ، قال : «ذاك صريح الإِيمان» – أخرجه مسلمٌ وأبو داود(٢) .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – :

«إنا نجد فى أنفسنا» : من الخواطر والأحاديث الشيطانية فى أمر الدين .

«ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به» : هذا لفظ «مسلم» ، والرواية فيه برفع : «أحدنا» ويجوز نصبه ، وهما لغتان كما فى «اللسان» .

تقول : «تعاظمنى الأمر» أي : هالنى وعَظُمَ عليَّ ، و«تعاظمتهُ» أي : «استعظمته وأنكرته» ، ولفظ «أبى داود» : «ما نُعْظِمُ أن نتكلم به» من الإِعظام بمعنى الاستعظام ، أي : نَعُدُّ التكلم به ذنبًا عظيمًا ، فننزهُ عنه ألسنتنا لقبحه وشناعته .

لم يجرؤ أحدٌ من الصحابة – رضى الله عنهم – أن يُصرح بأعيان تلك الخواطر التى اعترتهم ، حتى بلغت بهم شدة

---

(٢) جامع الأصول: ٢٤٣/١ ــ الكتاب الأول ــ فى الإيمان والإسلام ــ الفصل الثاني: فى المجاز ــ الحديث رقم: «٣٣».

و«تيسير الوصول: ٢٠/١».

وفى «صحيح مسلم ١١٩/١: (١) ــ : كتاب الإيمان ــ (٦٠) ــ : باب بيان الوسوسة فى الإيمان ــ الحديث رقم : (٢٠٩).

و«سنن أبى داود: ٦٢٣/٢ ــ كتاب السنة ــ باب فى رد الوسوسة».



الحــذر من ذلك مبلغًا يفســره لنا حديث «ابــن عباسٍ» عند «أبى داود» قال: «جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسـول اللهِ إن أحدنا ليجد فى نفسه يعرضُ بالشيء لأن يكون حُمَمَةً أحب إليه من أن يتكلم به» الْحُمَمَةُ - بضمٍّ ففتح -: واحدة الْحُمَـم وهو الفحمُ وكل ما احترق مـن النار، والضمير فى «لأن يكَون» للأحد، واللام فيه للابتداء أو القسم أي: واللهِ! لأن يحتـرق أحدنـا حتى يصير فحمًا أحـب إليه من التكلم بذلك الشيء الذى يجده فى نفسه، فضلًا عن الاعتقاد به.

لكــن النبى ﷺ وقد بُعث ليُعلم الناس كل ما يعنيهم من أمر دينهم لم يجد حرجًا أن يذكر لنا بصريح العبارة مثالاً مما يجـده الناسُ فى صدورهم، فقال ﷺ فيما رواه «الشـيخان» عن «أبى هريرة»: «يأتى الشـيطان أحدكم فيقول: من خَلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك».

وفــى رواية لهمـا «لا يزال الناس يتسـاءلون حتى يقال: هـذا الله خلق الخلـق، فمن خلق الله؟».. ويقـاس على هذا الخاطر ما أشـبهه مـن الهواجس فى أمر الـذات والصفات الإلهية وسائر الأمور الاعتقادية.

قال ﷺ: «أوَ قد وجدتموه؟» اسـتفهامٌ تقريري، والواو عاطفـةٌ على مُسـتفهم عنـه محذوفٍ، أي: «أقـد كان ذلك الوسـواس؟ وقـد وجدتم منه فـى صدوركم هـذا الانقباض والاشـمئزاز؟ يُشـير ﷺ إلى أنه كان مـن المتوقع حدوث



الوساوس للمؤمنين على هذا الوجه وهو أنها لم تكن لتنشرح لها صدورهم، أو لتزيغ بها قلوبهم، ومنشأ هذه الإشارة تعبيره بكلمة: «قد» التى يُجاء بها فى الكلام لتحقيق أمرٍ يُنتظرُ وقوعه. تقول: «جاء فلان» إذا كان السامعُ خالى الذهن من مجيئه وعدمه، فإذا كان مُتشوفًا لخبر مجيئه، مُتوقعًا له قلت: «قد جاء فلان».

قالوا «نعم يا رسول الله! قد وجدناه وأنكرناه».

قال ﷺ: «ذاك صريح الإيمان»: ها هنا مرجعان لاسم الإشارة بحسب اللفظ فإن كان المشار إليه هو إنكار هذه الخواطر واستعظامها والخوف من النطق بها فضلاً عن اعتقادها فلا شُبهة فى أن ذلك من علامات صحة الإيمان، وخلوصه من شوائب الشكوك والأوهام. رغم التشكيك الذى يُلقيه الشيطان. أما إن كان المشار إليه هو حدوث تلك الوساوس كما هو ظاهر حديث «مُسلم» عن «ابن مسعود» قال: «سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، فقال: «تلك محض الإيمان»[٣]. فربما عُد من المشكل المحتاج إلى بيانٍ، إذ كيف تكون الوسوسة محض الإيمان أو علامة محض الإيمان؟

وبيانه يتوقف على مقدمة يُعرف بها أنواع الوجدانات السيئة التى تعترى المرء فى المسائل الاعتقادية، وعلى أى

---

(٣) «صحيح مسلم: ١١٩/١ ــ (١) ــ: كتاب الإيمان ــ (٦٠) ــ: باب: بيان الوسوسة فى الإيمان ــ الحديث رقم: ٢١١».



نوعٍ منها يقع اسم الوسوسة المذكورة فى الحديث.

والقول فى ذلك أن هذه الوجدانات على ضربين:

(أحدهما): ضارٌ، بل خطرٌ، يهدم بُنيان الإيمان. وهو ما كان إيحاءً بشبهةٍ مُعينةٍ تُوجب ريبةً فى أصلٍ من أصول الدين ولم تجد النفس حلاً لتلك الشبهة بل وجدت من العقل تأمينًا عليها. ومن القلب ركونًا إليها فاسترسلت على النفس واستقرت فيها، فهذا الضرب لا نُسميه وسوسةً بل إن نُسب إلى مصدره وفاعله سُمى إغواءً وتضليلاً. وإن نُسب إلى مورده وقائله سُمى غيًا وضلالاً وذلك هو سلطانُ «الشيطان» الذى يقول الله تعالى فيه:

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ (النحل: ٩٩ - ١٠٠)

(الثاني): وهو المسمى بالوسوسة أو حديث[٤] النفس، هو ما لم تجتمع فيه تلك الصفات بل تجرد منها كلاً أو بعضًا. فمخالفته للضرب الأول على صور ثلاث:

الصورة الأولي: أن يخالفه فى أصل موضوعه ويفترق عنه

(٤) من إضافة المصدر لفاعله إذا كان من داخل النفس: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ «سورة ق:١٦». أو لمفعوله إذا جاء إليها من الخارج بإلقاء «الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس»، «سورة الناس: ٤ - ٥».



من أول الطريق. وذلك إذا لم يتعلق بالأصول، بل بما حولها من التفاصيل التى لا يدعو إلى البحث عنها إلا شهوة الاطلاع علـى المجهولات ولو لم تكن فى متنــاول العقول، ككيفية وجود واجب الوجود المشار إليها فى الحديث بالسؤال عمن خلق الله، إذ متى عُلم أنه تعالى خالقُ كل شـيءٍ وأن كل شيءٍ مخلوقٌ لله لم يمكن أن يكون شــيءٌ منها خالقًا له، فالسؤال عمــن خلقهُ إن أُخذ على ظاهره كان متناقضًا ولم يدخل على النفس منه شــبهةٌ فى هذا الأصل. أما إن كان سـؤال دهشـةٍ واسـتغرابٍ وتطلـعٍ إلـى تحديد هــذه الحقيقـة وإخضاعها للتصور: كيف وُجدَ بغير مُوجدٍ؟ وكيف وُجِدَ من غير أولٍ؟ كما يُسألُ عن سر فعل الكهرباء كيف تُضيء بغير نارٍ وكيف تُحـرك بغيــر بُخارٍ؟ فقد خرج الأمر عن الإنكار والشــك إلى البحــث عن الأســرار المحجوبة التى يعجزُ عــن الإحاطة بها أهل الســماء والأرض إذ لا يمكن للمحاط أن يُحيط بمحيطهِ ولا للمحدود أن يسع أكثر من حدوده.

الصــورة الثانيــة: أن يوافقه فى الخطــوة الأولى ويفارقه عند الخطوة التى تليهــا وذلك إذا تعلق بالأصول ولكنه لم يكن وحيًا بشــبهةٍ محدودةٍ ولا طعنًا فى دليلٍ معينٍ، بل مع وضوح الأدلة وســلامة مقدماتها ومساعدة الفطرةِ السليمة لها وبلوغ الإيمان بنتائجهــا فى بعض الأحيان مبلغًا يقربُ من العلم الضرورى الذى يُحسهُ الوجدان إحساسهُ بالمحبة



والبغض والرضى والغضب، مع هذا كله قد تسمع النفس فى فترات غفلتها هاتفًا من شياطينِ المادة يهتف بها مُشككًا لها فى أساس إيمانها، تشكيكًا لا يعتمد قوانين المناظرة، بل هو من قبيل منع القضايا المبرهنة من غير خدشٍ لأدلتها لا بالإجمال ولا بالتفصيل.

مثال ذلك أن يجيء «الشيطان» إلى الإنسان فى صلاته أو دعائه وهو ذاهلٌ، فيدخل عليه تحت ستار النصيحة المموهة قائلاً له: «ما بالك تُحرك لسانك بما لا تعي؟ أحضر قلبك، وقدر موقفك، واعبد الله كأنك تراه» فإذا اتفق ذات مرةٍ أنه حاول هذا الاستحضار فلم يجد من فوره حلاوة المناجاة، ولم تُسعفه بديهته بتفهم كلمات الله كلمةً كلمةً، والتحقق بمعانيها فى الوصف والثناء والرغبة والرهبة وغيرها وجد «الشيطان» إليه منفذًا آخر، يقول له: «ما بك؟ أمؤمنٌ أنت حقًا؟ أين هذا الإيمان وأنت ذا تتلمسهُ فلا تجده؟ لعلك مخدوعٌ عن نفسك، وما أنت إلا مُقلدٌ سمعت الناس يقولون قولًا فقلت كما يقولون بغير برهانٍ، أو مُستدلٌ أخذت بالظن واليقين وحسبت نفسك آخذًا بالعلم واليقين»، وربما استطرد معه قائلاً: «بل هو ذاك. وإلا فنبئنى أين هذا الذى تُكلمه؟ هل ترى أحدًا قريبًا منك فتناجيه. أو بعيدًا عنك فتناديه، أم هو الخيال يُصورُ لك حاضرًا ما ليس بحاضرٍ، ويجعلك تهذى فى خلوتك كالذى يُكلم نفسه؟ وهل تلك



الأدلة العقلية التى يُقيمها الناس كافيةً فى إثبات ذلك الشيء الذى تُخاطبهُ، إثباتًا لا يحتملُ النقيض كالإثبات بالمشاهدة أليس من المحتمل ولو على وجهٍ بعيدٍ أن تكونوا واهمين فى هذا الاستنتاج، ككثيرٍ من الاستنتاجات العقلية التى يعرض لها الخطأ؟».. وهكذاً ينتقل به من التحريض على الإحسان إلى التشكيك فى الإيمان ثم من التشكيك فى الإيمان إلى التشكيك فى «المؤمن به» وهو فى كلا التشكيكين يعتمد إلى مغالطة مكشوفة.

أما تشكيكه له فى أنه مؤمنٌ فمبنيٌ على أن «عدم الوجدان دليلٌ على عدم الوجود» وهى مغالطة قد تجوزُ على الغافل، كما أن المصاب ببعض الأمراض قد يتهم نفسه حين يغيب عنه من شاهده باحتمال الغلط فى مشاهدته، فيقول: لعل ذلك كان من تخييلات الأوهام.

وكذلك المؤمن بالأمور الغيبية إذا أصيب بمرض الغفلة فَكَمَنَ إيمانه فى حوافظ نفسه وتراكمت عليه أطباق النسيان خُيل إليه فى أول تنبهه أنه لا يجد إيمانه وأنه نزل من اليقين إلى الظن، وقد يزداد تسلطُ هذا الخيال على نفسه إذا كان عميق الغفلة أسيرًا لظواهر الحس، لا يرى أبعد من جدار القبلة، ولا يُحس أكثر من شبح جسمه وصدى صوته، فكان من أجل ذلك كلما حاول أن ينفذ ببصيرته إلى بواطن الأمور ويتذوق تلك الحقائق العليا وجد شيئًا من الصعوبة، كأنما



يتناوشها من مكانٍ بعيدٍ أو يستقيها من بئرٍ عميقة الغور. فإذا لم يجد ما يطلب من المشاهدة القلبية والإحساس الروحانى وقف الشيطان يضحك منه قائلاً: «لقد صدَّقْتَ ظنى فيك فلولا أنك فى شكٍّ من دينك لوجدت نفسك بعد هذه المحاولة فى حضور ومشاهدة».. فيزداد توهمًا أنه قد سُلب إيمانه، وليس كذلك، وإنما هو عدم الحضور لا عدم الحصول، ونقصُ الزيادة لا نقص الأصل. وآية ذلك أنه لو أخذ يتحسسُ يقينهُ ويراجع براهينه ويجترها رويدًا رويدًا ليتذوقها، لوجد عقدة إيمانه وثيقةً، ولاستبان له بعد الرجوع إلى صوابه أنه لم يكن من الشك فى شيءٍ، ولكنه التشكيك جعله ينشد ضالةً هو يحملها فى طيات نفسه.. ولعل مما يُرَفِّهُ عن قلب المؤمن فى هذا المقام أن نضرب له مثلاً يعرف به سر هذا الاختلاف الذى يجده بين حالى قوته وضعفه، ليدرك أنه ليس راجعًا إلى اختلاف اليقين والظن بل راجعٌ إلى تفاوت طبيعة الإيمان بالغيب فى نفسها وفرق ما بينها وبين الإيمان بالشهادة: ذلك أن الحقائق الغيبية مع كونها مشرقةً بالبرهان هى دائمًا محجوبةٌ عن العيان. فكانت كالسهل الممتنع أو بعبارة أخرى كالقمر لا يخلو أحد وجهيه عن الضوء ألبتة، ولكنه تارةً يستقبلك بوجهه المضيء وتارةً يستدبرك به فكذلك نحن كلما شُغلت حواسنا بظواهر الدنيا لم نُشاهد نور الإيمان، وكلما طالعت قلوبنا آيات الله أشرق علينا نور تلك الحقيقة وليس فى طاقتنا



مادمنا مؤمنين بالغيب أن نكون فى شهودٍ دائم، كما ليس فى طاقتنا أن نجعل القمر مُشرقًا أبدًا كالشمس، أوً نجعل الشمس طالعةً ليلًا ونهارًا.. وبالجملة فطبيعة الإِيمان بالغيب تأبى أن تكون كالإِيمان بالشهادة، إذ:

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ٢٠)

نعم إن المدى بينهما قد يقصر جدًا حتى ليكادان يلتقيان لكن دوام هذه الحال من المحال، لأن الإِنسان معجونٌ بطينة النسيان.

وأما استطراده إلى التشكيك فى أصل الأصول وحقيقة الحقائق وهى وجود المعبود، بناءً على أن «كل ما لم يقع تحت الحس بطريق مباشرٍ جاز أن يكون وهمًا وخيالاً[٥] وإن قامت عليه البراهين».. فهى مغالطةٌ أشد تهافتًا مما قبلها، إذ لا يقبل عاقلٌ أن يُقال عنه إن علمهُ لا يُجاوز حدود سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه، ففيم إذًا ينتفع بعقله؟ وكيف يؤمن بالحساب والمنطق وسائر العلوم العقلية أم كيف يؤمن «بالجغرافيا» والتاريخ فيما لم يشهده من الأقطار النائية

---

(٥) هذه الفكرة الشيطانية إن عرضت للمؤمن فإنما تمر بقلبه مر الخواطر الوقتية. كغيرها من الوساوس. ولكننا سنعالجها كما تُعالج الشبهات الحقيقية، لأنها هى كذلك فى بعض النفوس، ولقد عظمت بها فتنة الملاحدة فى هذا العصر فأضلوا بها كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. فلا تملوا إذا طال الكلام فى تفنيدها.



والأمــم الخالية؟ مــع أنه لابد فى الإيمــان بالأخبار المتواترة مــن تصرفٍ عقلى وهو الجزم باســتحالة تواطؤ الناقلين على الكــذب. بل كيف يؤمن بعداوة العدو وصداقة الصديق وهو لم يشــق عن قلبه وكيف يعرف عقــل العاقل وجهل الجاهل وهــو لم يطلع على تضاريس مُخــه؟ وكيف يقول إنه رأى يد فــلان إذا كانت مســتورةً فى قفازها، وكيــف يؤمن بحياة من يكلمــه مــن وراء جدارٍ وهــو لا يرى شــخصه؟ وكيف يؤمن بالكهربــاء وهو لا يــرى إلا آثارها بل كيــف يؤمن بحياة من يُشاهده وبقدرته وعلمه وهو لا يرى إلا مظاهر تلك القوي؟

ولماذا يســتعد للقاء الجيوش قبل قدومها ولترميم الدار قبل سقوطها ولتوقى الأمراض قبل هجومها؟ فإن كان يؤمن بهــذا كله ثــم يزعم أنه لا يؤمــن إلا بما يراه ويلمســه فهو متناقــضٌ فى دعــواه، وإن كان لا يؤمن بشــيءٍ من ذلك فقد شهد على نفسه بالنـزول إلى رتبة الحيوان الأعجم، بل إلى أدنــى منه رتبــة، فإن الحيوان بعقله الغريــزى أو الوراثى قد يؤمــن بما لا يراه، اســتدلالًا بما يري. فالفــأر يدرك عداوة الهــر، والشــاةُ تعرف عــداوة الذئــب، والكلــب يفهم من إحســان صاحبــه إليــه معنى العطــف والرحمــة، فيتعلق به ويكافئهُ بالوفاء والأمانة.

ولــو أن الخطــأ فى بعــض الاســتنتاجات العقليــة لفقدها شرائط النظر الصحيح يوجب التشكيك فى كل حكمٍ عقليٍّ



لجاز مثله فى العلوم الحسية أيضًا لوجود الغلط فى بعض الحس، كراكب المركب السريع يرى الأشجار والمنازل تدور حوله. فمن وسعه لذلك أن يتشكك فى حسه وعقله معًا فقد خرج إلى الجهل المطلق بل الجنون المطبق. ومثل هذا لا يستحى أحدٌ أن يصفعه، وليس له أن يغضب ممن يصفعهُ إذ لعله خدعه حسهُ وخانه وهمهُ على أنه إن ساغ التشكيك بمثل ذلك فى بعض(٦) النظريات العلمية، فكيف يسوغ فى الاستدلال بالآثار الحسية على وجود مصدرٍ لها، وبعظمة

(٦) هنالك نظريات علمية قابلة للتغيير والتبديل، كبعض نظريات الطب والفلك والطبيعة والكيمياء ففى مثلها يسوغ الوقوف عند كل خاطرٍ مُشككٍ يقال فيه أصوابٌ هى أم خطأ بل يحسن إفساح الصدر لكل بحث يُطلب به استفتاء العقل فيها من جديد. فعسى أن ينقض البحث فيها اليوم ما أبرم منها بالأمس وأن يهدم الغد ما بناه اليوم. لكن هناك إلى جانب هذه النظريات نظرياتٌ أخرى لا تتغير ولا تتبدل كنظريات الحساب والهندسة والمنطق. فهل يقبل عاقلٌ أن يسمع تشكيكاً فى قاعدة التناسب، أو قاعدة زوايا المثلث، أو قاعدة التناقض والعكس؟ ثم ها هنا أولياتٌ، وها هنا نظريات قريبةٌ من الأوليات هى أحق بألا تُصغى أذن القلب إلى خاطرٍ يُشكك فيها، لأنها قد استجابت لها العقول بفطرتها، وهى مغروزةٌ فى سِنْخِهَا وقرارتها. فلا يمكن أن ينظر عاقلٌ فى مرآة نفسه إلا وجدها، ولا تصدق دعوى عاقلٍ أنه بحثها فلم يهتد إلى الصواب فيها لأنه لا يمنع من إدراكها إلا الإغماض عنها، ومتى توجهت إليها النفس بإخلاص وهُديت إليها بالآيات الساطعة وجب أن تُعد أموراً مفروغاً منها، وأن يُعد كل تشكيك فيها داحضاً بنفسه. ذلك مثل الحقيقة الإلهية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ «الشورى:١٦».



تلـك الآثار على قدرة ذلك المصدر، وباختلافها على اختياره وبائتلافهـا علـى وحدتـه، وبدقـة نظامها على سـعة علمه؟ إن هـذا النوع من الاسـتدلال ليس مركوزًا فى فطرة الإنسـان وحـده، بل فى فطـرة الحيوان كله، حتى إن البهيمة لتسـمعُ الصوت فتذعر منه علمًا بأن له مصدرًا وأن وراءه سببًا مؤثرًا.

الحق أن هذه الشبهة إن شوشت لحظةً فإنما تُشوش على من لم يرجع إلى نفسه فى تحقيق عقائده وإنما استمدها من تلك الأدلة التى صنعها المتكلمون لفئة خاصةٍ وهى فئة الحكماء والفلاسفة، إجابةً لشـهوة عقولها ودعاءً لها بالنوع الـذى تألفه من الحكمة. فلمـا أطالوا فيهـا النُّجْعَةَ وتكلفوا المقدمـات المركبة والبحوث المقعدة صوروا المسـألة بصورة النظريات العويصة القابلة للأخذ والرد وهى من أقرب الضروريات إلى الحس والفطرة كما ذكرنا، لذلك عرفها «العرب» فى أشـد جاهليتهـم، وأدركها أهل الأديان علـى اختلاف مللهـم ونحلهم، بـل الماديون فى قرارة أنفسـهم جازمـون بأمثالهـا ولكـن غفلتهـم لما اسـتحكمت وشـهواتهم العاجلة لما استحوذت شُغلت أنظارهم بالحظوظ الدنيا وصرفتها عن الحقائق العليا حتى بَعُدَ الفهم بها وصار ضروريها مُحتاجًا إلى التنبيه(٧) إليه كما يحتاج النظرى إلى الاستدلال عليه.

أما من كان يأوى فى عقائده إلى ركنٍ شديدٍ من مشاهداته

(٧) من هنا سمى القرآن ذكراً، وسميت الآيات تذكرةً، والأنبياء مُذكِّرين والاهتداء تَذكُّراً.



وتأملاته الشخصية فى آيات الله فإنه لا يلبث إذا سمع ذلك الصوت المزعج الذى ينعق به الشيطان بين جوانحه، أن يجد من يقظة روحه وصفاء إحساسه مذبةً يطرد بها عن نفسه ذلك التشويش، بل لا يلبث أن يسمع من ضميره مناديًا ينادى قائلاً :

«أتسأل أين هذا الذى أناجيه ! إنه ليس شيئًا يُستقبل بالأبدان أو يُتمثل فى عرض الجدران، فأفرح إن تعلق به خيالى كأنه ماثلٌ أمامى حاضرٌ محدودٌ، أو أحزنُ إن لم أُحس به كأنه غائبٌ مفقودٌ كلا، لا شأن لى بهذا الذى يغيب ويحضر، فما ذاك إلا الأخيلة والأوهام. وإنما أناجى حاضرًا لا يغيبُ، لكن شأنه فى حضوره عجيبٌ ! فهو ليس بالقريب الذى ينحصر فيُحَدُّ، ولا بالبعيد الذى يُفتشُ عنه فيُفتَقَدُ وهو مع ذلك قريبٌ جدًا بسلطانه، بعيدٌ جدًا بعلو شأنه. هل أُطلعك عليه ؟ إنه لا يُدركه الطرف. هل أصفُهُ لك ؟ إنه لا يكشف عنه الوصف. هل أُمَثِّلُهُ لك ؟ إنه لا يُتخيلُ بذاته، غير أنه بقدر عظمة مُلكه تتمثلُ عظمة صفاته، فيتصور مُحيطًا بكل شيءٍ ولا يُحيطُ به شيءٌ. وأخيرًا هل أدلك عليه ؟

«انظر معى ألست ترى هنالك يدًا تعمل من وراء الأيدى كلها، لا يخرج شيءٌ عن سلطانها، ولا يملك أحدٌ رد قضائها، ولا مُضاهاة عملها. ألا ترى تلك اليد ؟ أما أنا فأكاد أراها من وراء سترٍ رقيقٍ كلما أطللت من غرفتى



وألقيت نظرى بعيدًا عن عمل الإنسان. فإذا ما عدت إلى عمل الإنسان كدت أراها أيضًا لكن فى قفاز الإنسان».

«نعم ها هى ذى تُحركُ العالم كله من حولنا: ترفع وتخفض، وتبسطُ وتقبضُ، وتُعزُ وتُذلُ، وتنصر وتخذلُ، وإن كان أكثر الناس بها لا يشعرون أما هنالك فإنها باديةٌ كأنها ليس دونها حجابٌ أترى أين؟ فى أفق السماء والأرض فى الليل إذا سجا، وفى النهار إذا تجلي، وفى النجم الطالع إذا هوى أو أفل، وفى الشهاب الثاقب كلما خبا أو اشتعل. ألم ترها بَعدُ؟ أفلا تراها فى الرعد إذا قصف وفى البرق إذا خطف، وفى القمر إذا خسف، وفى الشمس إذا كسفت، وفى الريح إذا عصفت، وفى النسيم إذا سري، وفى البحر إذا جري، ألا تراها فى الحى يخرج منه الميتُ، وفى الميت يخرج منه الحي، وفى ذلك الماء المهين يصير إلى رجلٍ عظيم. وفى هذا الرجل العظيم يصير خبرًا بعد عينٍ. ألاً تراها فى تلك الجيوش الجرارة من أسراب الطير، وحيوان البحر، وأمم الوحوش، والحشرات، والهوام. وفى الجراثيم السابحة فى الماء والهواء والأجسام! إلى غير ذلك من العوالم الظاهرة والخفية التى لا يعلمُ أحدٌ منا أين مسراها ومأواها، ولا يفهم لغتها ولا يُدبر رزقها وأجلها ونظام عملها. ألا تراها فيما يقع للأنبياء من المعجزات الخارقة وفيما تشاهده الأرواح من الرؤى الصادقة وفى خطأ



الحاسبين، وكذب المنجمين، وعجز المتطببين، ثم فى عجز أهل السموات والأرض أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ «الحج: ٧٣»

وَفِــــى كُــــلِّ شَــــيْءٍ لَــــهُ آيَــــةٌ
تَــــدُلُّ عَــلَــى أَنَّــــهُ الــــوَاحِــــدُ(٨)

«بل مالى أُشير إليه بعيدًا عنى وهو منى قريبٌ، بل أقرب إليَّ من حبل الوريد، هذه يده أكاد أُحسها آخذةً بناصيتي، مُصرِّفَةً لسمعى وبصري، مُقلبةً لحركات قلبى وخطرات نفسي، مُدبرةً غذاء روحى وجسمي، من مفرق رأسى إلى أخمص قدمي، ومن أطراف شعرى وغضون جلدي، إلى أعماق عظمى ومخى وعصبي، كل ذرة منه يجرى إليها رزقها المقسوم ونصيبها المعلوم من حيث لا أريد ولا أشعر. يُمسكُ نفسى حين يشاء، وما يُمسكُ فلا مرسل له، ويرسلها حين يشاء وما يرسل فلا ممسك له، أعزمُ العزيمة فيفصمها، وربما أُحلها فيبرمها، أعرف الشيء ثم أُنكرهُ وقد أُنكرهُ ثم أعرفه. أحب الشيء ثم أكرهه وتارةً أكرهه ثم أحبه فذلك الشيء الذى يملك منى ما لا أملكُ، ولا أملك شيئًا مما يملك، إليه أوجه قلبى وأفوض أمرى وبه

(٨) «ديوان أبى العتاهية: ١٠٤»



أستعين فى حاجتي، ولا أعبدُ إلا إياه، ولا أُعطى من نفسى المذلة إلا له:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾ «الشعراء: ٧٨ - ٨١»

«وبعدُ، فما ظنك فى تلك القدرة التى فوق القَدْرِ؟ هل عسيت أن تقول إنها قوةٌ قاهرةٌ حقًا، ولكنها ليست شيئًا وراء قوة الطبيعة المادية؟ أتظن ذلك؟ ناشدتك! نبئنى ماذا تفهم من كلمة: «الطبيعة» فإنى لست أفهم منها إلا مجموعة تلك الخصائص والسنن التى تجرى عليها المادة فى وجودها، وهذه الخصائص وإن صلحت مبدأً لآثارها لا تصلح أن تكون هى المبدأ الأول للكائنات كلها حتى المادة التى تقوم هى بها، لأن منزلتها من المادة منزلة الصفة من موصوفها، ولن تكون صفة الشيء اللاحقة به المستندة إليه مبدأ له إلا لو كان ثوبك الذى تلبسهُ أو شكلك الذى أنت عليه سببًا فى وجودك، فإن ما لا قيام له إلا به؟ كيف يُقَوِّمُ غيره بل كيف يُقَوِّمُ ما هو محتاجٌ إليه ولا قيام له هو بنفسه؟ فهذه السنن الكونية إذًا مفعولةٌ مجعولةٌ لا فاعلةٌ مسيطرةٌ.

«ولكن لعلك تعنى شيئًا آخر، تريد أن تقول: إن ذات



المادة وماهيتها اقتضت وجودها، واقتضت أن يكون وجودها على هذا النحو المشاهد إذًا لكانت المادة بأوضاعها واجبة الوجود لذاتها، مُستحيلة العدم لذاتها، فياليت شعرى أى محالٍ عقليٍّ كان يقع لو لم توجد السموات والأرض ومن فيهن، أو لو وجدت على أوضاع غير ما هى عليه؟ أكان يجتمع النقيضان، أم كان يكونَ الشيء غير نفسه، أم عين غيره، أم ماذا؟».

«ثم لو كان وجودها مُقتضى ذاتها لكانت شيئًا واحدًا مُتشابهًا، لأن الذات الواحدة الساذجة لا تقتضى الأضداد والنقائض. فما بالنا نرى طبيعة كل جنس منها تخالف طبائع سائر الأجناس، وطبيعة النوع من الجنس تُخالف طبائع باقى الأنواع، بل لكل فردٍ ولكل عضوٍ وظيفةٌ طبيعيةٌ يؤديها غير وظيفة العضو الآخر؟ فالماء لا يُحرقُ، والنار لا تُطفئ، والحمارُ لا يُغرد، والعصفور لا ينهقُ، والأذن لا تُبصر، والعين لا تسمعُ، والإنسان لا يولد ماشيًا مستقلًا بنفسه، وفرخ الدجاجة يخرج مستقلًا عن أمه، وفرخ الحمامة لا يستغنى عنها إلا بعد مدة:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾

«النور: ٤٥»



وهكذا تختلف الكائنات العلوية فى أحجامها وألوانها وحركاتها ومداراتها اختلافًا كبيرًا.

فإن ذهبت إلى أن ماهية المادة أمرٌ مركبٌ من عناصر متفاوتة، وأن كل عنصرٍ منها يقتضى لذاته نظامًا خاصًا لا يخرج عنه فقد أحلتَ، لأن المركبات لا يكون وجودها مقتضى ذاتها، إذ هى مسبوقةٌ بأجزائها المقومة لها، محتاجةٌ إلى كل جزء منها لحصول هيئتها التركيبية، والمسبوق بغيره أو المحتاج لغيره لا يكون وجوده مُقْتَضَى ذاته، بل لابد له من علةٍ أخرى. ومع ذلك نسأل: «لماذا لا تطرد الطبيعة الواحدة بالوراثة فيما تناسل منها، بل كثيرًا ما تتخلف. فالبصير يلد أعمي، والأعمى يلد بصيرًا، والجاهل يُنجبُ عالمًا، والذكى غبيًا، والتقى فاجرًا، والفاجر تقيًا». نقول: «لماذا هذا التخلف وذاك الاختلاف مع أن ما ثبت للشيء بذاته لا يمكن أن يتخلف ولا أن يختلف؟» بل لماذا نرى الطبيعة الواحدة فى نفسها قد تنقلب رأسًا على عقب؟ فلقد حدثنا التاريخ الصادق بانقلاب الطين طيرًا على يدى «عيسي»، وانقلاب العصا حيةً تسعى على يد «موسي»، والنار بردًا وسلامًا على «إبراهيم» - عليهم الصلاة والسلام - بل حدثتنا المشاهدة - وهى أقرب إقناعًا للمجادل - بأن دودة القز الزاحفة متى تُركت وشأنها انقلبت فراشًا يطير بجناحين، وهذه سنةٌ



نراهـا فيها باطرادٍ . فأين مقتضى الطبيعة النوعية لو كان ما تقضى به واجبًا لذاتها ؟ !

«أما إذا نزلت عن دعـوى الوجوب الذاتى واعترفت بأن المادة كان يُمكــن أن تُوجد ، وألا تُوجدَ وأنها حين وُجدت كان يمكن أن تُوجد على هذا النحو أو على غيره ، ثم قلت : «ولكنهــا هكذا وجدت مصادفــةً واتفاقًا وهكــذا اختلفت أنواعهــا مصادفةً واتفاقًا ، لأنها لمــا وجدت تحركت فأخذ كل جزءٍ منها شــكلاً ما ، وتبوأ مكانًــا ما ، مصادفةً واتفاقًا ، فاختلفت مظاهرها تبعًا لاختــلاف تلك البيئات والظروف التــى أحاطت بها ، وربما تغلــب بعضها على بعض مُصادفةً واتفاقــا أيضًــا » ، فهــذا كلامٌ يحتمل معنيين أحدهما أشــد بطلانًا من الآخر :

فأمــا إن كان معنــاه أنهــا وُجدت وحدث فيهــا ما حدث هكــذا تَرَجُّحًا بغير مُرجــح(٩) وفعلاً بغير فاعلٍ ولا ســببٍ أصــلًا ، فذلك ما تُنكــره قواعد(١٠) الماديين أنفســهم ، بل

(٩) هناك فرقٌ بين الترجح بغير مُرجح والترجيح بغير مُرجح: فالأول هو أن يكون للشيء طرفان مُمكنان فيحصل أحدهما بغير موجد. والثانى أن يكون للشيء طرفان ممكنان فيوجد أحدهما بموجد لا يُبنى عمله على حكمةٍ، بل على مجرد الاختيار والتحكم. والمحالُ عقلاً هو الأول أما الثانى فإنه يقع من غير العقلاء ومن العقلاء فى بعض الأحوال.

(١٠) من القوانين الأساسية فى علم الطبيعة والكيمياء هذا النص: «المادة لا تحدث من تلقاء أنفسها».



تنبذه عقول الناس والبهائم :

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾

«الطور: ٣٥»

وأما إن كان معناه أنها حدثت وتنوعت بسببٍ إلا أن هذا السبب ليس قوةً ذات شعورٍ واختيارٍ وذات تدبيرٍ وحكمةٍ، بل شيءٌ ما اتفق ترجيحهُ لجانبٍ من جوانب الإمكان، فهذا اعتراف في الجملة بوجود مؤثرٍ ليس من قبَلِ ذات المادة وماهيتها بل هو أمرٌ خارجٌ عنها. وهذه خطوةٌ فى طريق الحق فهل تزعم بعد ذلك أننى أنا وأنت وسائر هؤلاء الناس الأحياء المفكرين أثرٌ لشيءٍ مجردٍ عن الحياة والتفكير؟ يا للمنطق!

«إن لبعض الحيوان صنعة تقع على وجهٍ لا يختلف. كالنحل مثلًا تبنى بيتها دائمًا على شكلٍ سداسي، والعنكبوت تنسج خيوطها مسطحاتٍ، ودودةُ القز تُكفنُ نفسها فى لفافةٍ من الحرير بيضية الشكل. فإذا قلنا إن أمثال هذه الصناعات نشأت عن غير اختيارٍ ورويةٍ من الحيوان صح لنا ذلك لأنها ضربٌ واحدٌ لا تفنن فيه».

«وأن من عمل الإنسان ما يقع على وجوهٍ مختلفة، لكنها لا تعتمد فى اختلافها شيئًا من المناسبة والحكمة، كما نقذفُ بأنقاض البناء إلى الأرض فيسقط كل حجرٍ منها على شقٍّ كيفما اتفق فإذا رأينا هذه الأحجار مختلفة الأوضاع



والأبعاد صح لنا أن نقول أيضًا : إن هذا الاختلاف جاء بمحض المصادفة عن غير قصدٍ ولا شعورٍ.

«لكن هل يقال مثل هذا فى صنعة الصائغ يصنع السوار على قدر المعصم والخاتم بمقياس الإصبع، وهل يقال مثل هذا فى بناء الأهرام ونحوها من الصناعات الفنية؟ كلا. فكذلك الأمر، بل أحرى، فى هذا البنيان الفخم الذى نسميه (الكون) فإنه يجمع إلى ما فيه من كثرة الاختلاف دقة الوضع وحُسن التنسيق والائتلاف، ففى تنوع أجزاء بُنيانه آيةٌ على اختيار بانيه، لأنه صنع فى سقفه ما لم يصنعه فى أرضه، وجعل فى أساسه ما ليس فى جوانبه، وجعل فيه مُتعًا شتي، وأسكن فيه أُممًا لا تُحصي، ثم فى ائتلاف تلك الأجزاء فيما بينها. ومناسبة كل جزءٍ منها لموضعه الذى وُضع فيه، ووفائه بالحاجة التى تُطلبُ منه، آيةٌ على علمٍ وحكمةٍ، بل على لطفٍ وعنايةٍ ورحمةٍ، ومن درس علم الحيوان وعلم النبات وغيرهما من العلوم الكونية وقف من ذلك على ما يزيده بصيرةٌ»(١١).

---

(١١) وذلك مثلًا بالتأملُ فى وجه التفاوت بين تركيب أصابع الإنسان وخُف البعير وحافر الفرس، والتفاوت بين منقار الطير وفم الإنسان وخُرطوم الفيل، وبين الأجهزة الهضمية والدموية والحواس فى الإنسان والحيوان فللإنسان معدةٌ واحدةٌ، وللبعير ثلاثُ معدات، ولسائر الحيوان المُجتر أربع، وليس للدودة الوحيدة جهازٌ هضميٌ أصلاً. للإنسان والأنواع العليا من الحيوان قلبٌ كاملٌ، وللأسماك نصف قلبٍ «أُذينٌ وبُطينٌ» والأنواع الدنيا من=



«لا نستطيع أن نقول إن للبيئة وحدها أثرًا فى هذا التكوين اتحادًا واختلافًا، ففى البحر من مختلف صور الحيوان عجائب وعبرٌ، وفى الغابات من الأشجار الطبيعية العتيقة التى تضرب بعروقها فى بقعةٍ واحدةٍ وتُسقى بماءٍ واحدٍ، وتتنفس فى هواءٍ واحدٍ، ضروبٌ مختلفاتٌ فى الشكل والحجم واللون والطول والقصر، بل الشجرة الواحدة قد تُؤتى طعومًا مختلفةً من الثمر، والغصن الواحد يُخرج ألوانًا شتى من الزهر، كما أن الرحم الواحدة تُنتج الغرائز المتفاوتة والصور المتباينة من الولد، ولو كانا توأمين لكان بينهما اختلافٌ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾

«فاطر: ٢٧ ـ ٢٨»

فإذا أضفنا إلى الوسط الطبيعى شيئًا من الانتخاب

=الحيوان لا قلب لها. عين الإنسان ذات عدسة واحدة وعين البعوض والنمل ذات عدسات كثيرة جداً فبالتأمل فى هذا وأمثاله نجد أن كل فصيلةٍ قد استوفت مطالبها التى يقتضيها مركزها فى الوجود. فلا تنقصها آلةٌ يتطلبها أسلوب معيشتها وليس فيها آلةٌ تزيدُ عن حاجتها. بل كل شيءٍ بمقدار، وكل شيءٍ أخذ خلقه الذى يُناسبه.



الصناعـى نجده قد يُجدى قليـلًا فى تهذيب أو تنويع بعض الفصائل الحيوانية أو النباتية ولكنه لا يُجدى فى نقل شيءٍ منهـا عن حدٍ محدودٍ، ونحن نرى النـاس يُقلمون أظفارهم ويختنون أولادهم منذ آلاف السنين ولم يجئ يومٌ يستغنون فيه عن الختان وتقليم الأظفار».

إن كل ما نستفيده من النظر فى البيئة وأسلوب المعيشة أن نفهم وجه حاجة المادة فى تكوينها إلى جهازٍ ما، ووجه ملاءمـة هـذا الجهـاز لحاجتها ولكـن من ذا الـذى يُعطيها سـؤلها ويُجهزهـا بجهازهـا لو كان الذى تسـأله لا يشـعرُ بحاجتهـا، وكانـت الأمور تجـرى على غير هُـدى يقودها تيار المصادفات بل هى نفسـها لا تشـعرُ بمستقبلها الذى ينتظرها حتى تطلب إبان تكوينها ما يُلائمه.

«علـى أنه لـو كانـت المصادفـة هـى التى ولـدت هذا النظـام البديع بغير قصدٍ فما الذى يُمسـكُهُ ويحفظهُ، وهو بَعْـدُ عُرضـةٌ فى كل لحظةٍ لمـا لا يُحصى مـن المصادفات والمفاجـآت؟ أليـس لأنٍ هناك عينًـا تُراقبهُ ويدًا تُمسـكهُ لولاها لزلزل واضطرب أو لزال وفسد؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾

«فاطر: ٤١»



وأخيـرًا لو أن الأمور تجرى على غيـر هديً يقودها تيار المصادفات لما انكشـفت أسـرار مسـتقبلها البعيد لأحدٍ علـى وجـهٍ صحيح جـازم، لأنه لا يـدرى كـم يحوطها من ظروفٍ مواتيةٍ أو معاكسـةٍ، لكن الأنبياء قد كشـفوا لنا عن طائفـةٍ صالحةٍ مـن تلك الغيوب فى أخبـارٍ صادقةٍ مصدوقةٍ فمن ذا الذى باح لهم بسرها إن لم يكن هو صانعها وقائدها الذى رسم مبادئها وغايتها وعلم منها ما كان وما يكون.

ذلك الله رب العالمين:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

«الأعلى: ٢ و٣»

والذى ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾

«طه: ٧»

والذى يسمع النجوي، فما لى لا أُناجيه وهو يرانى وإن كنت لا أراه، ويذكرنى وإن كنت قد أغفلُ عنه وأنساه.

﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

«إبراهيم: ١٠»

آمنت بالله.. آمنت بالله.



الفهرس